" العمل " فى الفكر التربوى الإسلامى (*)

تشـــكل " العقيدة الإسلامية " المحور الأساسى الذى دار حوله الإنتاج الفكرى فى التراث العربـــى فـــى كافة مجالاته وأشكاله طوال ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً من القرون الماضية مـــثلت القرون الخمسة الأولى منها على وجه التقريب من بعد ظهور الإسلام ذروة الازدهار الثقافـــى . ومـــن المعـــروف أن الإنتاج الفكرى الذى شهدته هذه المنطقة لم يكن جهداً قام به العـــرب وحـــدهم ، وإنما شاركهم فيه علماء ومفكرون من مختلف البلدان التى انضوت تحت لواء الإسلام ، فهناك فرس وهنود وأتراك وأسبان ... الخ ، ولكنه إنتاج أفرزته حضارة قدح زنادها ظهور الدين الإسلامى وأتاح لها النمو والازدهار بما أقامه من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية .

ومـــن هـــنا كـــان اختيارنا لبحث قضية العمل داخل هذا الإطار دون أن يعنى ذلك أننا نفاضل بين منهج دينى وبين منهج علمانى ، لأننا نؤمن بضرورة استخدام منهج البحث العلمى فـــى دراسة مختلف الموضوعات أيا كان نوعها أو اتجاهها ، كما أنه لا يعنى أننا نفاضل بين العقـــيدة وبـــين القومـــية ، لأن المفاضلة تكون بين الأغيار والمتضاد من المسائل والأشياء ، ونحن لا نؤمن – على الأقل بالنسبة للباحث – بأن هناك تضاداً وتناقضاً بين القومية والدين ، وإنما المسألة كلها التزام بالواقع التاريخى لا أكثر ولا أقل ، فلقد أتاحت الظروف للباحث كثرة الـــتجوال فـــى رحاب التاريخ الخاص بهذه المنطقة وخرجنا بنتيجة محددة ، وهى أنه أيا كان اتجـــاه الباحث وأيا كانت عقيدته ، وأيا كان هدفه فإنه لا يستقيم الأمر لدراسته ما لم تقم على تلـــك المســـلمة التى نعتمد عليها ، وهى أن " العقيدة " الإسلامية كانت هى الإطار ، أو هى المســـرح ، أو هـــى المـــناخ الـــذى تشكلت فيه وحدثت عليه وتنفست سائر ألوان وقطاعات وتيارات الثقافة فى هذه المنطقة منذ ظهور الإسلام .

(*) قدمت هذه الدراسة إلى المؤتمر الفكرى الثانى للتربويين العرب ببغداد ، يونيه ١٩٧٨ عن " التراث التربوى العربى " .

أولاً – معنى العمل ومجالاته

" الإيمان " و " العمل " و " التربية " :

مما قد لا يكون لنا فضل فى إبرازه والتنويه به ، القول بأن " العمل " و" العقيدة " وجهان لعملة واحدة ، وإنما نحن هنا لا نفعل أكثر من مجرد التذكير أو انتهاج نهج المنطق القياسى عندما يبدأ من مقدمات معلومة كى ينتهى بنا إلى نتائج لم تكن معلومة . ففى مجال العقيدة الدينية بالذات لا يمكن أن يكون الهدف ، مجرد ظهور " كتاب " يحوى بين دفتيه عددا أكثر أو أقل من التعاليم والمبادئ والأفكار ، وإنما يكون الهدف هو إعادة صياغة الإنسان بما يتفق وما جاءت به تلك العقيدة ، وألا تظل معالم هذه الصياغة حبيسة الأوراق أو تضيع فى موجات الهواء ، وإنما تتشخص واقعا وفعلا فى سلوك إنسانى يفكر بمقتضاها ويتخيل ويتصور ويخطط ويقيم علاقاته . وإذا قلنا هذا ، فإن من أهم ما يترتب عليه ، هو أن هناك تلازما بين العقيدة الدينية وبين التربية ، حيث إن التربية – كما نعلم – هى تلك العملية الموجهة توجيها قائما على بصر لتحويل الأفكار والمبادئ على المستوى النظرى إلى سلوك على المستوى الفعلى . أما النتيجة الأخرى ، فهى التلازم بالتالى بين العقيدة والعمل لأن التربية سوف تعجز بالتأكيد عن القيام بمهمة التشخيص الواقعى والتجسيد الفعلى إذا توسلت إلى ذلك بالأساليب النظرية وحدها ، وإنما يتم لها ذلك بإجراءات وأفعال وأعمال تتحت فى أرض الواقع فتشكل الإنسان بالفعل .

فنحن إذا أردنا التشبيه بعملية البناء الهندسى ، نجد العقيدة هى تلك التصميمات التى يضعها ويتصورها ويرسمها " المهندس " ، والتربية هنا هى ذلك العمل الذى يقوم به " المقاول " الذى يستحيل عليه إخراج التصميم الهندسى إلى حيز الوجود إلا بأفعال وأعمال وتغيير فى الواقع .

من أجل ذلك نجد هذا الاهتمام الشديد بـ " العمل " .. فى المصادر الرئيسية للفكر الإسلامى وفى مقدمتها بطبيعة الحال ، القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وذلك السعى الحثيث لرفع مكانته والدعوة إليه ، وبإبراز جوهريته للحياة الإنسانية . وفى مقررات علماء الإسلام : إن العبادة المتعدية أفضل من العبادة القاصرة ، والعبادة المتعدية هى العمل الذى يفعله الإنسان على سبيل العبادة ليتعدى بنفعه إلى غيره من الناس ، والعبادة القاصرة هى التى يكون نفعها قاصراً على صاحبها وفاعلها .

وأوضـــح ما يؤكد لنا ذلك ، هو تلك الآيات القرآنية العديدة التى تقرن بين الإيمان وبين العمل ، ومن ذلك على سبيل المثال :

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ [١] .
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [٢] .
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ [٣] .
- ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ [٤] .

فالإيمـــان لابد أن يقترن بالعمل لأن العمل ثمرة الإيمان وبرهانه ، وليس الإيمان بالتمنى – كما يقول الرسول ﷺ – ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

ولقـــد قال قوم فرطوا فيما يجب عليهم : نحن نحسن الظن بالله ، فقال عنهم الرسول ﷺ كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل ، ذلك أن العمل غاية إنسانية ، وواجب اجتماعى فى الحياة ، وهو فى الوقت نفسه من القيم الدينية التى تصل إلى مستوى العبادة لأنه يحقق الحكمة من خلق الإنسان ووجوده فى هذه الحياة .

وإذا كان كل من فى الوجود يعمل ، من أعظم الأجرام السماوية إلى النملة التى لا يسمع دبيـــبها علـــى الأرض ، إلـــى الذرة التى تقاس بجزء من عشرة ملايين من المليمتر – وهى حـــركة دائبة تؤلف بين أجزائها الثلاثة (الإلكترون والبروتين والنيوترون) – فإن الإنسان لا يســـتطيع أن يخـــرج علـــى نوامـــيس الكون والحياة فيعيش بلا عمل وإلا لفظته الحياة ونبذه المجتمع وتحطم كيانه وفقد معنى وجوده [٥] .

وجوب العمل :

وإذ تبلغ العلاقة بين العقيدة والعمل هذه الدرجة من القوة ، كان من الطبيعى بعد ذلك أن يصبح واجبا وفرضا [٦] ، يقول بعض الصحابة وقد رأوا شابا قويا يسرع إلى عمله : لو كان هـــذا فـــى سبيل الله !! فيقول الرسول عليه الصلة والسلام : " لا تقولوا هذا ، فإنه وإن كان خـــرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين

---

[١] الكهف / ١٠٧ .
[٢] الكهف / ٣٠ .
[٣] يونس / ٩ .
[٤] الرعد / ٢٩ .
[٥] محمد كامل حتة : القيم الدينية والمجتمع ، سلسلة اقرا (٣٨٦) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٧١ .
[٦] جمال الدين عياد : شريعة الإسلام ، العمل والعمال (١) ، مكتبة الخانجى ، القاهرة . د . ت . ص ١٢ .

كبيرين ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة ، فهو فى سبيل الشيطان " [١] ، ويقول فى مناسبة أخرى : " العامل على الصدقة بالحق كالغازى فى سبيل الله حتى يرجع " [٢] ، وكذلك يقول عمر بن الخطاب لرجل ترك عمله الذى يرتزق منه ورحل إلى المدينة ليجاهد : " ارجع ، فإن عملا بالحق ، جهاد حسن [٣] " . وروى أيضا أنه بعث سفيان بن مالك ساعيا بالبصرة ، فمكث حينا ثم استأذنه فى الجهاد ، فقال له عمر : أولست فى جهاد " ؟ [٤] .

ولو لم تكن للعمل الحلال قدسيته التى تقارب قدسية العبادة ، لما سمى سبحانه وتعالى الإيمان " تجارة " ، إذ يقول : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [٥] ، ولما قرن العمل بالصلاة إذ يقول : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [٦] وبالجهاد ، إذ يقول ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [٧] ، ولما آذن بالتجارة فى مواسم الحج ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [٨] ، بل إن الحج إنما فرض لينتفع الناس بالتجارة كما ينتفعون بالعبادة وباجتماعهم فى صعيد واحد ، وفى ذلك يقول تعالى ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ [٩] .

وقد خفف الله سبحانه وتعالى عن رسوله ، ومن اقتدى به من المسلمين أعباء قيام الليل لأسباب منها : ألا يرهق التعبد البعض ليلا فيقعدهم عن طلب الرزق نهارا ، وفى هذا يقول ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ [١٠] .

---

[١] الحافظ المنذرى : الترغيب والترهيب ، جـ ٢ ، ص ٥٢٤ .
[٢] أبو عبيد : الأموال ، ص ٦٠٥ .
[٣] المصدر السابق ، ص ٥٩٧ .
[٤] أبو يوسف : الخراج ، ص ٩٨ .
[٥] الصف / ١٠ .
[٦] الجمعة / ١٠ .
[٧] المزمل / ٢٠ .
[٨] البقرة / ١٩٨ .
[٩] الحج / ٢٧ ، ٢٨ .
[١٠] المزمل / ٢٠ .

فنحن هنا نرى الله قد جعل الضرب فى الأرض طلبا للرزق من أسباب التخفيف ، مثله فى ذلك كمثل المرض ، كما أشارت الآية ، وفى هذا ، الإشارة إلى أن العمل فى نظر القرآن ، ضرورة من أكبر الضرورات [١] .

ونحن إذا رجعنا إلى الصورة التطبيقية فى حياة الأنبياء والرسل ، وهم الذين يعطون القدوة والمثل ، نجد الدليل الواضح على قيمة العمل فى ميزان الدين ، فلقد كانت حياتهم كلها عملا وجهادا ، ليس فى ميدان الفكر والدعوة فحسب ، ولكن فى مجال العمل اليدوى وغيره من الأعمال ، فقد عمل داود عليه السلام وكان خواصا ، وعن هشام بن عروة عن أبيه ، قال: " كان داود يخطب الناس على المنبر وإنه ليعمل الخوص بيده ، فيعمل منه القفة ، أو الشىء ، ثم يبعث به مع من يبيعه ويأكل من ثمنه " . وكان (إدريس) خياطا يتصدق من كسبه بما فضل من قوته ، وكان (زكريا) نجارا ، وكان (موسى) يعمل أجيرا . وفى القرآن حكاية عن إحدى بنات شعيب :﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ .

وقد عمل النبى محمد ﷺ فى التجارة مع عمه أبى طالب ، ولخديجة بنت خويلد قبل أن يتزوجها ، ورعى الغنم [٢] ، وكان يقوم بكثير من شئون البيت ، وقد سئلت عائشة : كيف كان النبى ﷺ ؟ قالت : " كان يكون فى مهنة أهله ، أى فى خدمتهم " . وروى عن أبى عباس أن قوما قدموا على الرسول فقالوا إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، فقال أيكم يكفيه طعامه ؟ فقالوا : كلنا ، فقال : " كلكم خير منه " . وفى حديث ثان قال : " إن الله يحب العبد المؤمن المحترف " . وكان عمر بن الخطاب يقول : " إنى لأرى الرجل فيعجبنى ، فأقول : أله حرفة ؟ فإن قالوا : لا ، سقط فى عينى " .

وحملت أسماء كبار المحدثين والفقهاء أسماء تنم عن حرفهم فبين البارزين من رواة الحديث أو الفقهاء : " الحذاء " و" الخصاف " و" القفال ". وكان الإمام أحمد بن حنبل يفرغ نفسه لصنوف من العمل كالكتابة ، أو الحمل فى الطريق [٣] .

ويقول ﷺ : " إن قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها ، فله بذلك أجر " .

---

[١] جمال الدين عياد ، مرجع سابق ، ص ١٤ .
[٢] سيرة ابن هشام ، ص ١٨٨ .
[٣] جمال البنا : العمل فى الإسلام ، كتاب العمل ، العدد (٨٥) ، مارس ١٩٧١ ، القاهرة ، ص ٢٧ .

وفـــى هـــذا الحديث النبوى تتمثل قيمة العمل وأهميته فى هذه الحياة ، حتى فى اللحظات الأخيـــرة التـــى يـــودع فيها الإنسان وتودع الدنيا كلها الحياة ، ولو قال الرسول : إن واجب الإنســـان حـــين يـــرى القيامة قد أقبلت هو أن ينفض يده من شئون الدنيا ، وأن يسارع إلى الاستغفار والتوبة ، لكان هذا متسقا مع طبيعة الموقف واتجاه الدعوة ، ولكنه ﷺ على العكس من ذلك ، يذهب إلى أنه لو كان بيد أحدنا فسيلة وقد قامت القيامة فاستطاع أن يغرسها قبل أن تدهمه القيامة ، فليفعل .

نعـــم فســـيلة النخل التى لا تثمر إلا بعد سنوات ، يحثنا هنا على غرسها ولو قبل القيامة بلحظـــات لأن الإنســـان مطالب بأن يعمل ولا يتوقف عن العمل مادام قادرا عليه حتى نهاية حياته ، كما أن الإنسان مطالب بأن يعمل مهما أبطأت ثمرة العمل ، ومهما فاته إدراك جزاء عملـــه فـــى حياته لا أن يقتصر الإنسان على ما يجنى ثمرته العاجلة أو ما يعود عليه وحده بالخيـــر ، وإلا مـــا استقام أمر الحياة ، ولا توارثت الإنسانية الحياة جيلا بعد جيل ولا ضحى الآبـــاء فـــى ســـبيل الأبناء أو بذل الأفراد جهودهم فى خدمة المجتمع ، ولما جنى اللاحقون ثمـــرات عمـــل العـــابقين ، ولا عمل هؤلاء اللاحقون بدورهم ليجنى من يأتى بعدهم ثمرات أعمالهم [1] .

أنواع العمل :

وإذا كانـــت المواقـــف التـــى نجد فيها حديثا عن العمل فى مصادر التراث الإسلامى قد تعـــددت تعددا ملفتا للنظر ، إلا أن الذى كان يقصد به فى كل موقف من المواقف قد لا يكون مماثلا لغيره ، إذ تناولت هذه المصادر مفهوم العمل بمعان مختلفة ولأغراض متعددة .

ونحـــن إذ نبسط فيما يلى بعض هذه المعانى وتلك الأغراض ، لا نستطيع أن نؤكد على وجه التحديد أن هناك فواصل دقيقة تفصل بين كل منهما فصلا تاما فهناك تداخل ما قد يحدث فـــى بعـــض الأحـــيان ، أما من الناحية العامة الكلية ، فإننا بالفعل نستطيع أن نميز بين ثلاثة معان للعمل يمكن إجمالها فيما يأتى .

١- **العمـــل الإنتاجى** : وهذا النوع يمكن أن نلمحه بوضوح من خلال التطبيق فى عهد الدولـــة الإســـلامية وفى التعليمات الإسلامية الرسمية التى لا يزال التاريخ يحتفظ بشىء منها حتـــى الآن ، فمن تلك التعليمات ، البرنامج الذى وضعه على بن أبى طالب لواليه على مصر

---

[1] حتة ، مرجع سابق ، ص ٧٤ .

محمد بن أبى بكر وأمره بالسير عليه وتطبيقه [١] ، ففى أمالى الشيخ الطوسى ، أن أمير المؤمنين لما ولى محمد بن أبى بكر مصر ، كتب له كتابا وأمره أن يقرأه على أهل مصر ، وأن يعمل بما احتواه ، وقد كتب الإمام فى هذا الكتاب يقول :

(يا عباد الله ، إن المتقين حازوا عاجل الخير وآجله ، شاركوا أهل الدنيا فى دنياهم ، ولم يشاركهم أهل الدنيا فى آخرتهم . أباح لهم الله الدنيا ما كفاهم به وأغناهم ، قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] . سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت ، وأكلوها بأفضل ما أكلت ، وشاركوا أهل الدنيا فى دنياهم فأكلوا معهم طيبات ما يأكلون ، وشربوا من طيبات ما يشربون ، ولبسوا من أفضل ما يلبسون ، وسكنوا من أفضل ما يسكنون ، وركبوا من أفضل ما يركبون ، أصابوا لذة الدنيا مع أهل الدنيا ، وهم غدا جيران الله يتمنون عليه فيعطيهم ما يتمنون ، لا ترد لهم دعوة ، ولا ينقص لهم نصيب من اللذة ، فإلى هذا يا عباد الله يشتاق من كان له عقل ويعمل بتقوى الله) .

وهذا الكتاب التاريخى الرائع ، لم يكن قصة يتحدث فيها الإمام عن واقع المتقين على الأرض ، أو واقعهم فى التاريخ ، وإنما كان يستهدف التعبير عن نظرية المتقين فى الحياة ، والمثل الذى يجب أن يحققه مجتمع المتقين على هذه الأرض ، ولذا أمر بتطبيق ما فى الكتاب ورسم سياسته فى ضوء ما جاء فيه من وصايا وتعليمات ، فالكتاب إذن واضح كل الوضوح فى أن اليسر المادى الذى يحققه نمو الإنتاج واستثمار الطبيعة إلى أقصى حد ، هدف يسعى إليه مجتمع المتقين ، وتفرضه النظرية التى يتبناها هذا المجتمع ويسير على ضوئها فى الحياة.

والهدف فى الوقت نفسه مغلف بالإطار المذهبى ، ومحدد بحدود المذهب كما يقرره القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [٣] فالنهى عن الاعتداء فى مجال الانتفاع بالطبيعة واستثمارها ، تعبير بالطريقة القرآنية عن ذلك الإطار المذهبى العام .

---

[١] محمد باقر الصدر : اقتصادنا ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٧٢٥ .
[٢] الأعراف / ٣٢ .
[٣] المائدة / ٨٧ .

وقد يقول بعض الناس : إن كل عقيدة دينية تفرض على المؤمنين بها ألوانا من العبادات وضروبا من القربات والمراسيم ، تأخذ من أوقات الناس شيئا يضيق ويتسع باختلاف الأديان وصنوف عباداتها ، وخذ مثلا الصلاة الإسلامية التى تؤدى فى كل يوم خمس مرات : أليس فى ذلك تعطيل للعمل ، وتعويق فى عصر الآلة والسرعة والمنافسة المستعرة ؟

والحق أن العبادات فى الأديان عامة لا تأخذ من وقت الناس إلا القليل ما لم يشرع الناس لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله ، فيشقوا على أنفسهم ويرهقوها عسرا . على أن القليل الذى ينفق فى العبادة ليس وقتا ضائعا على الحياة والإنتاج . كلا . إنه شحذ للهمة ، وتوليد للقوة ، وصقل لمعدن النفس لتعود إلى معركة الحياة أقوى وأمضى . وإنه لظلم للواقع أن يقاس الشىء بأثره المادى المباشر المنظور فقط ، ويغفل عن أثره الفعال غير المباشر فى داخل الإنسان وروحه المعنوية [١] .

وفى فكرنا الحديث ، نجد رفاعة الطهطاوى يطرح تساؤلا يختص بالمفاضلة بين الموارد الطبيعية وبين " العمل " الإنسانى وأيهما منبع الغنى والثروة ، ومن خلال عرضه لوجهات النظر حول هذا الموضوع يقف الطهطاوى بلا تردد فى صف " العمل " بمعناه الإنتاجى ، الذى يسميه " الشغل " مستدلا على ذلك بمثال الثروة الناتجة عن الزراعة " بأنه لا يمكن إيجاد الخصب فى الأرض إلا بدوام الشغل واستمرار العمل ، وإلا بقيت مجدبة إذا انقطع الشغل عنها فإن الشغل يعطى قيمة لجميع الأشياء التى ليست متقومة بدونه " [٢]

ويؤكد فى موضع آخر " أن منبع السعادة الأولى هو العمل والكد ومزاولة الخدمة ، ومع أن كد العمل مصدر السعادة الأصلى فهو أيضا يعين صاحب الميسرة على تكثير ميسرته ، بقوة العمل ومضاعفة الهمة حسب الطاقة ، أزيد مما تساعد خصوبة الأرض عليه ، يعنى لو زرعنا أرضا خصبة وميزنا ما يمكن أن ينسب من إيرادها للعمل وما ينسب للخصوبة منه ، وفرزنا كلا على حدته ، وجدنا محصول العمل أقوى من محصول الخصوبة " . ويدلل على هذا بأن الأمم المتقدمة (فى ممارسة الأعمال والحركات الكدية) قد خطت خطوات ضخمة

---

[١] يوسف القرضاوى : الإيمان والحياة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ١٩٦٩ ، ص ٣٠٦ .
[٢] رفاعة الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، فى (الأعمال الكاملة) ، تحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، جـ١ ، ص ٣١٠ .

فـــى طريق الغنى " بخلاف غيرها من الأمم ذات الأراضى الخصبة الواسعة الفاترة الحركة ، فـــإن أهالـــيها لـــم يخـــرجوا مـــن دائرة الفاقة والاحتياج ، فإذا قابلت بين أغلب أقاليم أوربا وأفريقية ، ظهر لك حقيقة ذلك " [١] .

إن هذا النص المهم ليبين لنا مقدار ذلك الوعى الذى توافر لمثل هذا المفكر العظيم عندما يشـــير مـــنذ أكثـــر مـــن مائة سنة على تلك الحقيقة التى تدور حولها اليوم مختلف دراسات اقتصـــاديات التعليم ، وهى أن توافر عنصر الثروة المادية وحده لا يمكن أن يكون هو العامل الحاسم فى عملية التنمية ، وإنما هو " العمل الإنسانى " .

وعقـــد ابن خلدون فى مقدمته بابا كاملا هو الباب الخامس من الكتاب الأول بعنوان " فى المعـــاش ووجـــوبه مـــن الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال " . والفصل الأول مـــنه جعـــل موضـــوعه " فـــى حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمـــال البشـــرية " . وقد بنى هذا الموضوع على تلك المسلمة الأساسية وهى " أن الإنسان يفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه فى حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده إلى كبره " .[٢] ومـــن ثم فهناك ضرورة تدفعه إلى " اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منها فى تحصيل حاجاته وضـــروراته " . ثـــم إن الحصول على المكاسب لا يكون إلا بـــ " العمل " الإنتاجى ويوضح ذلك بقوله : " ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعى فى الاقتناء والقصد إلى التحصيل ، فلا بد فى الرزق من سعى وعمل " .

وإذا كـــان الإنســـان مضـــطرا إلى تحصيل الرزق لاستمرار حياته وأن ذلك لا يتم إلا " بالســـعى والعمـــل " ، فإن الهدف من العمل هنا يكون إنتاجيا : " اعلم أن المعاش هو عبارة عـــن ابـــتغاء الـــرزق والســـعى فى تحصيله لأنه لما كان العيش الذى هو الحياة لا يحصل إلا بهذه ، جعلت موضعا له على طريق المبالغة " [٣] .

---

[١] المرجع السابق ، ص ٣١٢ .
[٢] مقدمة ابن خلدون ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، د . ت ، ص ٣٨٠ .
[٣] المرجع السابق ، ص ٣٨٢ .

ثـم كـتب ابن خلدون كذلك عن العمل الصناعى وكيف أن من الضرورى أن يقوم على علم [١] . ويبدو لديه الوعى بالنظرة الكلية فى التغير الثقافى حيث يؤكد أن التقدم فى الصنائع لا يـتم إلا " بكمال العمران الحضرى وكثرته " ، وأيضا لأن " رسوخ الصنائع فى الأمصار إنمـا هـو برسوخ الحضارة وطول أمده ، وبالتالى فإن البلد التى تنهار حضارتها " انتقصت منها الصنائع " كذلك .

٢- **العمـل الأخلاقـى** : وقد يتصور البعض أن " القانون " كفيل بتنظيم الأعمال الخلقية بحـيث يمكن الاستغناء به عن الدين ، ولكننا نذهب إلى اتجاه آخر ، نؤكد فيه أن القانون إذا كـان مـن المحتم ألا يحتوى على ما يخالف الفضيلة الإنسانية ، إلا أن كل الفضائل لا تكون صالحة لأن تدخل تحت سلطان قانون زاجر ، فالفضيلة تحرم الغيبة والنميمة والكذب والنفاق والمخاتلة والمخادعة ، ولكن لا يمكن وضع عقوبات دنيوية يطبقها القضاء لأنها لا تقع تحت سـلطان الإثبات الدنيوى ، فيبقى العقاب عليها أخرويا [٢] . ومن هنا كان ذلك الترابط بين " الدين " و " الأخلاق " .

ولما كان الإنسان لديه الاستعداد والقدرة أن يقوم بعمل فيه صلاح المجتمع وسعادة البشر وكذلك أن يقوم بعمل فيه إفساد للمجتمع وإشقاء للبشر ، أبرز القرآن الكريم مبدأ " المسؤولية الأخلاقـية " ، فالإنسان مسؤول عن عمله – فردا أو جماعة – لا يؤخذ واحد بوزر واحد ولا مجـتمع بوزر مجتمع ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِين ﴾ [٣] ، ويقول أيضا ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٤] .

إن مناط المسؤولية فى القرآن جامع لكل ركن من أركانها [٥] . يتغلغل إليه فقه الباحثين، فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها الأساسية : تبليغ ، وعلم ، وعمل ، فلا تحق التبعة علـى أحد لم تبلغه الدعوة : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [٦] .

---

[١] الفصل السادس عشر من الباب الخامس ، ص ٤٠٦ من المقدمة .
[٢] محمد أبو زهرة : المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام ، فى (التوجه الاجتماعى فى الإسلام) ، من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، جـ ٢ ، ص ٢٩ .
[٣] الطور / ٢١ .
[٤] البقرة / ١٣٤ .
[٥] عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم ، دار الهلال ، القاهرة ، د . ت ، ص ١٢ .
[٦] يونس / ٤٧ .

وأول فاتحـــة فـــى خلق الإنسان ، كانت فاتحة العلم الذى تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾ (١) .

وأما العمل ، فهو مشروط فى القرآن بالتكليف الذى تسعه طاقة المكلف ، وبالسعى الذى يسعاه ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (٢) .

ونسوق فيما يلى عددا من النماذج لأعمال خلقية دعا إليها الإسلام :

أول أمـــر اتجـــه إلـــيه الإســـلام فى تكوين الأخلاق ، هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكـــر ، فأوجـــب على الأفراد على وجه الواجب الكفائى أن يكون بينهم من يتولى الإرشاد العام والتربية الأخلاقية .

وإذا كـــان الإرشاد العام فرضا كفائيا ، لكن هناك فرض عين على كل فرد رأى شرا أن يمنعه ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَـــنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـــئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) ، وقول الرسول الكريم : " من رأى منكم منكـــرا ، فليغيره بيده فإن لم يستطع ، فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه " . ولقد ذم القرآن بنى إســـرائيل لأنهـــم أفسدوا المجتمع بترك الآثمين يرتعون فى إثمهم من غير أن ينهوهم فقال : ﴿ لُعِـــنَ الَّـــذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (٤) .

الـــنفاق والرياء . وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (٥) .

النميمة : فى ذلك يقول : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ ﴾ (٦) .

الـــبخل (٧) : وفـــى ذلك يقول : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٨) .

---

(١) البقرة / ٣١ .
(٢) البقرة / ٢٨٦ .
(٣) آل عمران / ١٠٤ .
(٤) المائدة / ٧٨ .
(٥) البقرة / ٢٦٤ .
(٦) القلم / ١٠ ، ١١ .
(٧) سعيد إسماعيل على : ديمقراطية التربية الإسلامية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٨٠ .
(٨) آل عمران / ١٨٠ .

تحـــريم الغـــش فـــى الميزان ، الذى جاء فيه قوله تعالى : ﴿ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ ﴾ [١] .

ويجمـــل الرســـول ﷺ العمل الأخلاقى فى هذا الحوار الذى دار بينه يوما وبين عدد من أصحابه ، إذ سألهم : " أتدرون من المفلس ؟ " وكانت الإجابة تعكس الفهم الشائع لدى غالبية الـــناس ، إذ قالوا " المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع " . فقال : " إن المفلس من أمتى من يأتـــى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، وقد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا وسفك دم هـــذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار " [٢] .

فهاهـــنا تأكـــيد لما ذهبنا إليه ، وهو أن العقيدة ليست فى مجرد أداء الطقوس والرسوم ، وإنما لابد أن يكون العمل أخلاقيا بالدرجة الأولى .

وبدراسة عدد من الكتابات التربوية ، نلمس هذا النوع من الأعمال واضحا ربما أكثر من غيره ، وهذا بطبيعة الحال يتفق مع مجال الكتابة نفسها ، فالتربية كما نعلم تجعل من الأخلاق مناط عملها الرئيسى ، بل لقد كان يرادف بينها من قبل وبين الأخلاق ، ومن ثم كانت تسمى أحـــيانا بـــ " التهذيب " و " الأدب " على أساس أن (التربية) مجالها هو (الأخلاق) أما التعليم فمجاله المعرف والحقائق العلمية المختلفة .

فهـــذا هـــو نصـــير الـــدين الطوســـى (٥٦٧ - ٦٧٢ هـ) يكـــتب فـــى كـــتاب (آداب المتعلمين) :

" وينبغـــى لطالـــب العلم أن يكون ذا همة عالية لا يطمع فى أموال الناس ، قال رسول الله ﷺ " إيـــاك والطمـــع ، فإنه فقر حاضر " ، ولا يبخل بما عنده من المال ، بل ينفق على نفسه وعلى غيره . وكان فى الزمان الأول يتعلمون الحرفة ، ثم يتعلمون العلم حتى لا يطمع فى أموال الناس [٣] . ثم يقول فى موضع آخر : " ينبغى أن يكون صاحب العلم مشفقا ناصحا وغير حاسد ، فالحسد يضر ولا ينفع " .

---

[١] الأعراف / ٨٥ .
[٢] رواه مسلم ، رياض الصالحين ، ص ١١٩ .
[٣] نصير الدين الطوسى : آداب المتعلمين ، نشره أحمد عبد الغفور عطار مع رسائل أخرى فى التربية الإسلامية ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٤٩ .

أما ابن جماعة (٦٣٩ – ٧٣٣ هـ) ، فقد كتب ينصح العلماء بما يلى :

" معاملة الناس بمكارم الأخلاق من طلاقة الوجه وإفشاء السلام وإطعام الطعام وكظم الغيظ وكف الأذى عن الناس واحتماله منهم والإيثار وترك الاستئثار والإنصاف وترك الاستنصاف وشكر التفضل ، وإيجاد الراحة والسعى فى قضاء الحاجات وبذل الجاه فى الشفاعات والتلطف بالفقراء ، والتحبب إلى الجيران والأقرباء والرفق بالطلبة وإعانتهم وبرهم " [١] .

ثم يطالبه كذلك بأن يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة ، ويعمره بالأخلاق المرضية ، فمن الأخلاق الرديئة : الغل والحسد والبغى والغضب لغير الله تعالى والغش والكبر .. والعجب والسمعة والبخل والخبث والبطر والطمع والخيلاء والمداهنة .. وحب المدح بما لم يفعل ، والعمى عن عيوب النفس والاشتغال عنها بعيوب الخلق " [٢] .

وأكد ابن حجر الهيثمى (٩٠٩ – ٩٧٤ هـ) على ضرورة ألا يقوم المعلمون باستغلال الطلاب فى قضاء حوائجهم وعبر عن ذلك بقوله : " لا يجوز لغير الأب حتى الجد للأم أن يستخدم الصغير فى شئ مطلقا " [٣] .

٣- **العمل الصوفى** : وإذا كنا نصادف ثروة ضخمة من الكتابات التى نجد فيها إلحاحا على ضرورة العمل وأهميته ، وبينا أن من أنواع العمل ، نوع إنتاجى ونوع أخلاقى ، فإننا لابد من أن نشير هنا إلى نوع آخر ربما احتل وزنا غير قليل فى التراث الإسلامى حول (العمل) وهو ذلك النوع الذى هدف أصحابه منه لا إلى استصلاح أرض ولا إلى تبادل تجارة ولا إلى أداء حرفة من الحرف ، وإنما هو عمل فردى يؤدى بعيدا عن الناس ، يقوم على المجاهدات والرياضيات التى تعمل على إضعاف صلة الإنسان بمناشط المجتمع وتجعله متفرغا للتعبد فقط .

وأبرز من يمكن أن يعطينا مفهوما عن العمل بالمعنى الصوفى ، هو الغزالى ، فهو يقول ما نصه [٤] : " وأما العمل فلسنا نعنى به إلا رياضة الشهوات النفسانية ، وضبط الغضب ،

---

[١] ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم ، دار الكتب العلمية ، ١٣٥٤ هـ نشره السيد محمد هاشم الندوى ، ص ٢٣ .
[٢] المرجع السابق ، ص ٢٤ .
[٣] ابن حجر الهيثمى : تحرير المقال ، فى (آداب المتعلمين) ، مرجع سابق ، ص ٣١٣ .
[٤] الغزالى : ميزان العمل ، حققه سليمان دنيا ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٩٢ .

وكســـر هذه الصفات لتصير مذعنة للعقل غير مستولية عليه ومستخرة له ، فى ترتيب الحيل الموصـــلة إلى قضاء الأوطار ، فإن من قهر شهوته ، فهو الحر على التحقيق ، بل هو الملك ولـــذلك قال بعض الزهاد لبعض الملوك : " ملكى أعظم من ملكك " ، فقال : كيف ؟ فقال : " مـــن أنـــت عبده ، عبدى " . وأراد به أنه عبد شهواته ، وشهواته صارت مقهورة له ، فعبد الشـــهوات العاجـــز عن كسرها وقهرها رقيق وأسير بالطبع ، ولا يزال فى عناء دائم وتعب متواتـــر ، إن قضـــى وطره يوما عجز عنه أياما . ثم لا يخلو فى قضائه عن أخطار وعلائق ومشاق ويضطر إلى تقلدها ، فتقليل الشهوات ، تقليل لأسباب الغموم ، ولا سبيل إلى إماطتها إلا بالرياضة والمجاهدة ، وهو المراد بالعمل " .

والهدف من العمل بهذا المعنى هو أن يتزود الإنسان بالمعرفة الإلهية ، وهو لهذا شرط أساسى لابد أن يسبق ويمهد لعملية التعليم بالطريقة الصوفية ، ويشرح الغزالى ذلك بالطريقة القياسية فيقول [١] : " إن تأثير العمل لإزالة ما لا ينبغى .

والسعى فى العلم ، سعى فى تحصيل ما ينبغى .

وإزالة ما لا ينبغى ، شرط لتفريغ المحل لما ينبغى .

والمشـــروط هو المقصود ، وهو أشرف من الشرط " ، وهو لكى يقرب لنا معنى ذلك ، يســـوق مثالا لمن يريد استيلاد امرأة بها علة تعوق الحمل ، إذ يجب عليه أن يقوم بخطوتين بالتـــرتيب الآتـــى : الأولـــى أن يـــزيل العلة التى تعوق الحمل . الثانية ، هى أن يودع فيها النطفة ، فالأولى شرط للثانية والثانية هى الغاية المطلوبة .

أما تفصيل هذا النوع من العمل أو كيفية حدوثه ، فيشترط الصوفية على مريده أن يودع حـــياته الأولى فيقطع صلته بماضيه وما كان فيه من إخوان سوء ، وشهوات نفس وزينة حياة وهو ما يسمونه بـــ " مقام التوبة " [٢].

وإذا كان العلم عادة يركز الاهتمام فى دراسته للسلوك الإنسانى على ما هو ظاهر منه ، إلا أن الصـــوفية يـــؤكدون أن العبرة لا يمكن أن تكون بمجرد الفعل ، لأن هناك من يقيمون المـــوائد للآخرين ويبذلون لهم المال والخدمات دون أن يعنى ذلك وجود خاصة " الكرم " فى شخصـــيتهم لأنه من الجائز أنهم إنما يريدون بذلك رياء وتملقا وسعيا لمصلحة أخرى ، فليس

---

[١] المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

[٢] أحمد محمود صبحى : الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥٧ .

الخلق هو الفعل ، وإنما " الهيئة التى عنها يصدر الفعل " [١] . ومن هنا كان اهتمامهم بالنوايا والبواعث الداخلية أو ما يسمى بخطرات القلوب : " إن كل صفة فى القلب يفيض أمرها فى الجوارح ، بل إن هذه لا تتحرك إلا بخطرات القلوب وإرادتها ، فالقلب هو المتصرف فيها وهى مسخرة له ، فلا يصدر عنها من عمل إلا بإشاراته لا تستطيع له خلافا ، ولا عليه تمردا ، ومن ثم فإن القلب هو الذى يجب تصحيحه وتقويمه وحسابه وعتابه " [٢] .

ومن هنا فإننا عندما ننظر فى آراء الغزالى التربوية ، فسوف نجده يعكس هذه النظرة بوضوح وجلاء ، فها هو إذ يكتب عن آداب المتعلم والمعلم [٣] يضع فى مقدمة هذه الآداب " تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ، إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى ، وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف ... " ، وهذه هى الوظيفة الأولى .

أما الوظيفة الثانية ، فيذكر الغزالى عنها [٤] : " أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن ، فإن العلائق شاغلة وصارفة ، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، ومهما توزعت الفكرة ، قصرت عن درك الحقائق ، ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فإذا أعطيته كلك ، فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر ، والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة ، كجدول تفرق ماؤه ، فنفشت الأرض بعضه ، واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ... " .

بل إن الغزالى فى تعريفه للتربية يبرز الجانب السلبى الذى يركز الصوفية عليه ، إذ هى من وجهة نظره عملية محو ردئ الصفات من الإنسان ، ويشبه العملية التربوية هنا بفعل الفلاح الذى يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزروع [٥] .

وعندما يعرض لصفات المربى الواجب توافرها ، يقول إنه هو من يعرض عن حب الجاه ، وعن حب الدنيا ، وكأنه تابع لشخص بصير تتسلسل متابعته " إلى سيد المرسلين عليه السلام " ، وكان محسنا رياضة نفسه : من قلة الأكل والقول والنوم وكثرة الصدقة والصوم وكان بمتابعته الشيخ البصير جاعلا محاسن الأخلاق له سيرة ، كالصبر والشكر والتوكل

---

[١] الغزالى : أحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، ص ٣٦ – ٣٧ .
[٢] صبحى : مرجع سابق ، ص ٢٦٣ .
[٣] الغزالى : أحياء علوم الدين .
[٤] المرجع السابق .
[٥] الغزالى : أيها الولد ، فى (آداب المتعلمين) ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

واليقين والسخاوة والقناعة ، وطمأنينة النفس ، والحلم والتواضع ، والعلم والصدق ، والحياء والوفاء .

ونحن إذا وازنا بين هذا النوع من العمل والنوعين السابقين سوف نجد أنه أبعد عن أن يكون موجها سليما للتربية ، إنه إذا كان قد بدأ بنزعة الزهد ، فهذا أمر محمود ، ولكنه انتهى إلى نتائج لا يمكن أن تجعل منه طريقا يصل سالكه إلى أن يكون ذا فاعلية وإيجابية اجتماعية.

ثانيا : أسس ومبادئ العمل

وبدراسة مختلف الكتابات والأقوال التى نجدها فى التراث الإسلامى عن العمل ، نخرج بعدد من الأسس والمبادئ التى تتشكل فى مجملها قاعدة صلبة يقوم عليها مفهوم العمل فى مختلف المجالات سواء كان فى التربية التى هى مدار بحثنا أم فى غيرها . ويمكن إجمال هذه الأسس والمبادئ فى الخطوط العريضة التالية :

١ - التقوى :

والتقوى لغة من الفعل الثلاثى وقى ، والوقاية مصدر بمعنى الحفظ والصيانة . ويقول الزمخشرى [١] فى الكشاف عند تفسير ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [٢] ، إن المتقى فى اللغة اسم فاعل ، من قولهم : وقاه فاتقى والوقاية فرط الصيانة ، والمتقى فى الشريعة الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك . المتقى لا يطلق إلا عن خبرة ، ولا يجوز إطلاق العدل إلا على الخير .

ومعنى قول صاحب الكشاف أن المتقى لا يطلق عن خبرة ، أن الحكم بالتقوى على الشخص لا يكون ، إلا إذا صدر منه عمل ، فإذا لم يعمل ، فلا يمكن وصفه بذلك ، وهذا مذهب أساسى فى الحضارة الإسلامية كان طاقة حيوية دفعت بها خطوات كبرى ، حتى إذا ترك أفراد مجتمعاتنا طريق العمل واكتفوا بالعبادة باعتبار أنها جوهر العقيدة ، وقصروا المؤمن على من يصلى ويصوم ويزكى ويحج وهى العبادة المفروضة ، وغفلوا عن أن العبادة تتصرف أيضا إلى الأعمال التى يقوم بها المرء لكسب معاشه كان ما عنينا من تأخر وضعف [٣] .

---

[١] الزمخشرى : تفسير الكشاف ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت . د.ت جـ ١ ص ٣٧ .
[٢] البقرة / ١ – ٢ .
[٣] أحمد فؤاد الاهوانى : القيم الروحية فى الإسلام ، سلسلة دراسات فى الإسلام ، العدد (٢١) ، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وزارة الأوقاف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ١٠١ .

وإذا أردنـــا أن نعرف قيام المفهوم الإسلامى للعمل على أساس " التقوى " فعلينا أن ننظر إلـــى شخص يسرق ثم يبنى بما سرقه مستشفى أو مدرسة . إن هذا عمل غير مقبول ، وفى ذلـــك قصـــة نزلت فيها آيات فى سورة التوبة وهى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّـــهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِـــيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْـــوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [١] .

والذى يروى فى ذلك ، أن أثنى عشر من المنافقين بنوا مسجدا مضارة لأهل مسجد قباء بأمـــر أبـــى عامر الراهب ليكون معقلا له يقدم فيه من يأتى عنده ، حيث كان قد ذهب ليأتى بجنود من عند قيصر لقتال النبى عليه السلام ، كما أنهم كانوا يبغون تفريق المؤمنين باجتذاب الذين يصلون بمسجد قباء ، ثم زعموا أنهم يريدون ببناء مسجدهم الرفق بالمسكين فى المطر والحر والتوسعة على الناس وسألوا النبى أن يصلى فيه ، فنزل الوحى عليه بعدم الاستجابة .

٢ - العلم :

تمتلـــئ الآثـــار الفكرية الإسلامية بالعديد من الشواهد المؤكدة لتعظيم العلم والحث على طلـــبه والدعـــوة إلى نشره بين الناس لسنا فى مقام يسمح لنا بالإفاضة فيها ، وإنما نكتفى هنا فقـــط بالإشـــارة إلـــى نماذج قليلة منها لبيان كيف أن المفهوم الإسلامى للعمل يقتضى ربطه بالعلم ، فهناك هذه الآية الكريمة التى ذكر فيها الله سبحانه وتعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ ، وقوله ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ، وقوله ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ ﴾ تنبيها على أنه اقتدر بقـــوة العلـــم . كذلك قال الرسول ﷺ " من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده "، وعـــن على بن أبى طالب أنه قال لكميل " يا كميل العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحـــرس المـــال ، والعلـــم حـــاكم والمـــال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق ، والعلم يزكو بالإنفاق . وقال أبو الأسود الدؤلى : ليس أعز من العلم . الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك " [٢] .

---

[١] التوبة / ١٠٧ ـ ١٠٩ .
[٢] الغزالى : إحياء علوم الدين ، جـ ١ ، ص ٥ ، ٦ .

وفـــى مقدمـــة كـــتابه " اقتضاء العلم العمل " ، يشبه الخطيب البغدادى العلاقة بين العلم والعمل بأن العلم شجرة والعمل ثمرة [١] ، وتشبيه آخر يذهب فيه إلى أن " العلم والد والعمل مولـــود " . وعلـــى هذا فهو ينصح : " فلا تأنس بالعمل مادمت مستوحشا من العلم ... ولكن اجمـــع بيـــنهما ، وإن قل نصيبك منهما ... " . ويفيض البغدادى فى الحديث عن تلك العروة الوثقى بينهما فيقول :

" والعلم يراد للعمل ، كما يراد (للنجاة ، فإذا كان) العمل قاصرا عن العلم ، كان العلم كـــلا علـــى العـــالم ، ونعوذ بالله من (علم عاد كلا وأورث ذلا وصغارا ، وصار فى رقبة صـــاحبه غلا) . قال بعض الحكماء : العلم خادم العمل ، والعمل غاية العلم ، فلولا العمل لم يطلب علم . ولولا العلم لم يطلب عمل ، ولأن أدعى الحق جهلا به ، أحب إلى " من أن أدعه زهدا فيه " [٢] .

وعقد ابن خلدون فصلا فى مقدمته عنونه بـــ " فى أن التعليم للعلم من جملة الصنائع " . وهـــو إذ يجعل من التعليم صنعة بمعنى (مهنة) ، يذكر أنه بذلك لا يتم إلا " بحصول ملكة فـــى الإحاطـــة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله . وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق فى ذلك الفن المتناول حاصلا .. " [٣] .

٣- حرية الإرادة :

فـــإذا كـــان " العمل " مجرد حركة ونشاط كما نرى عند سائر الكائنات الحية ، لما أثبتنا ضـــرورة توافـــر الحـــرية للإرادة الإنسانية ، لكن العمل فى المفهوم الإسلامى متعدد الزوايا مخـــتلف الجوانب ، وهو على تعدده واختلافه " إنسانى " بالدرجة الأولى . و " إنسانيته " هذه هـــى التى توجب أن تكون إرادة القائم بالعمل حرة .. حرة فى اختيار الباعث والدافع ، حرة فى طريقة التنفيذ ، حرة فى اختيار نوع العمل ، حرة فى إتمام وتحمل نتائجه .

ونحـــدد مفهـــوم الإرادة ، فنقول إنها لا تعنى مجرد الرغبة والميل ، ولا هى تقف عند التفكيـــر والاتجاه إلى عمل ما ، إنما تكون الإرادة ، حين تنتقل النية إلى عمل ، ويستقر العزم علـــيه فـــى تصـــميم مهما تكن العوائق والموانع . ومبدأ (الأعمال بالنيات) لا يعنى الإلزام

---

[١] الخطيب البغدادى : اقتضاء العلم والعمل ، تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ ، ص ١٤ .
[٢] المرجع السابق ، ص ١٥ .
[٣] ابن خلدون ، ص ٤٣٠ .

بالمسئولية على مجرد النية ، بل بقدر سبق العمد ، ويفرق بين وجود موانع خارجية تحول دون نفاذ العمل بعد القصد إليه والشروع فيه [١] .

وفى دراسة تحليلية للدكتورة عائشة عبد الرحمن لاستعمال " الإرادة " فى القرآن ، وجدت أنها قد جاءت فى نحو ١٤٠ موضعا ، كلها بصيغة الفعل الماضى أو المضارع فحسب ولم يستعملها قط بصيغة المصدر أو أى صفة من مشتقاته ، وإنما هى فعل لا غير . ولا يستعمل الفعل منها بصيغة الأمر فى أى موضع من القرآن كله ، وهذا يعنى أنه لا يعرف الإرادة إلا عملا وفعلا فليست عنده من المجردات الذهنية التى تختص بها الأسماء ولا هى الصفات التى تطلق على الأشجار أو تضاف إليها . فكأن العبرة فى الإرادة بالفعل لا بالتصور أو الوصف أو الادعاء [٢] .

وما معنى هذا ؟ معناه أن الإرادة لو كانت قد وردت بأمر لانتفى بذلك جوهر الإرادة من حيث هى مشيئة واختيار .

والدارس لفكر المعتزلة يجد أنها من أكبر الفرق الفكرية الإسلامية وأخطرها نزوعا إلى القول بحرية الإرادة وأن ذلك ضرورى للسلوك الإنسانى ، فالحرية يجب أن تفترض كمبدأ لإمكان أداء الواجبات وقيام الوعد والوعيد ، وإذا افترضت على الإنسان التكاليف ، فإن الحرية صفة تحمل على الإرادة لإمكان أداء التكاليف على النحو الذى وجهت عليه .

ولموقف المعتزلة نظير فى الفلسفة الحديثة ، فلدى كانط نحن لسنا أحرارا فى مجال التجربة حيث خضوع حواسنا تماما للعالم الخارجى وتبعية علمنا لموضوعاته ، ولكن فى مجال " الأشياء فى ذاتها " فنحن أحرار ولابد من استقلال الإرادة لما يلزم عن ذلك من إمكان الأخلاق . وعلى نفس النمط ، يسبقه المعتزلة برأيهم : لسنا أحرارا فيما لا تعلق للتكليف به كبدء وجودنا أو نهايتنا أو صلة حواسنا بالمدركات وما نجده من طعوم وروائح ومسموعات ، بل كل ما فى العالم من موجودات بفعل خلقة الله للأشياء وما طبعها عليه ، ولكن فيما يتعلق بالتكليف فهذا يقتضى التسليم بإرادة حرة [٣] .

---

[١] عائشة عبد الرحمن : مقال فى الإنسان ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٠٦ .
[٢] المرجع السابق ، ص ١٠٨ .
[٣] صبحى : الفلسفة الأخلاقية ، ص ١٦٣ .

٤- الدافعية :

والعمـــل هو تجسيد فعلى لفكرة ولرأى ، ومن ثم فهو الطرف الخارجى لخيط يبدأ غالبا من داخل الإنسان ، وهذا الجزء الداخلى هو أغلب الأحوال الدافع أو الباعث لإجراء العمل ، وإن كان هذا ليس شرطا دائما ، ففى بعض الأحوال يكون الدافع من خارج .

وفـــى تلك الدراسة التحليلية القيمة التى قام بها الدكتور سيد عثمان لكتاب برهان الإسلام الزرنوجـــى المتوفـــى ســـنة (٥٩١ هـــ - ١١٩٥ م) (تعليم المتعلم طريق التعلم) نرى الاهتمام بالدافعية فى العمل والسلوك ، وهو ما يسميه المحلل بـــ " دافعية نشاط " [١] إذ يذكر أن ما يقوم به المتعلم من نشاط أو أداء أو عمل أو ممارسة هى فى ذاتها مؤدية دورا دافعيا ، فلـــيس السلوك منفصلا عن الانفعال وليس الأداء منفصلا عن الدافعية ، ومن هنا كان إصرار الزرنوجـــى فـــى نصـــحه للمتعلم أن يفرق بين الهمة والجد ، وأن يبعث نفسه على التحصيل والجد والمواظبة وأن يكون درسه وتكراره ، " بقوة ونشاط " .

ومن وضوح إدراكه للعلاقة بين الفعل والانفعال ، بين السلوك والدافعية ذكره أن التغلب علـــى الكســـل - وهـــو هبوط فى الأداء وفى الدافعية - يشارك فيه الجد والمواظبة ، أى أن اســـتنهاض الدافعـــية يحدث بزيادة حيوية وإيقاع السلوك الظاهرى . وكما أن هذه الزيادة فى حيوية وإيقاع السلوك تؤثر انفعاليا ، فإنها تؤثر معرفيا فى الدافعية [٢] .

ومن الأدلة الأخرى على وضوح هذا الإدراك عند الزرنوجى رأيه فى دفع الملل بتنويع النشاط فيقول : " وينبغى لطالب العلم أن يستغرق جميع أوقاته ، فإذا مل من علم يشتغل بعلم آخر " .

أمـــا ابن جماعة فقد ألح على المعلم فى أن يلجأ فى تعليمه إلى " الترغيب " حتى يضمن إقبال المتعلم على التعلم ، ويقول فى ذلك : " أن يرغبه فى العلم وطلبه فى أكثر الأوقات بذكر مـــا أعـــد الله تعالـــى للعلمـــاء من منازل الكرامات وأنهم ورثة الأنبياء وعلى منابر من نور يغـــبطهم الأنبـــياء والشهداء أو نحو ذلك مما ورد فى فضل العلم والعلماء من الآيات والآثار والأخـــبار والإشعار ، ويرغبه مع ذلك بتدريج على ما يعين على تحصيله من الاقتصار على الميسور وقدر الكفاية من الدنيا والقناعة بذلك عن شغل القلب بالتعليق بها " [٣] .

---

[١] سيد أحمد عثمان : التعلم عند برهان الإسلام الزرنوجى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٥٥ .
[٢] المرجع السابق ، ص ٥٦ .
[٣] ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٤٨ .

٥- الاستعداد والقدرة :

وإذا كـــان لابد من العلم قبل العمل ، وأن يكون العمل نتيجة لدافعية واضحة ، فإن هذا وذاك وغيره قد لا يكون مؤديا إلى العمل الفعلى ما لم يتوافر لدى الإنسان " الاستعداد " ، وما لم تكن لديه " القدرة " على هذا العمل .

فهـــذا ابـــن خلـــدون يشرح الطريقة التى يجدها أكثر من غيرها فاعلية فى إنجاح عملية التعلـــيم ويقسمها إلى مراحل ثلاث ، لكل مرحلة هدفها ووسيلة تنفيذها ، وأن من السخف حقا أن يلقى المعلم بكب ما يريد تعليمه للمتعلم دفعة واحدة ، بل لابد من التدرج والابتداء بالخطوة الأولـــى الأســـهل ، ثـــم الانـــتقال إلـــى الخطـــوة الثانية ، وتكون أكثر من الأولى صعوبة وهكـــذا ... وهو إذ يفصل طريقته بهذه الصورة يبنيها على ذلك المبدأ الهام ، مبدأ الاستعداد والقدرة ، فيقول : " اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ، ويقرب له فى شرحها على سبيل الإجمال ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه " [١] .

ثم هو إذ ينتقد الطرق الأخرى التى يلجأ إليها بعض المعلمين من البدء بالمسائل " المقفلة مـــن العلـــم ويطالـــبونه بإحضار ذهنه فى حلها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفـــونه وعـــى ذلـــك وتحصـــيله ... " يـــؤكد أن عمـــل هذا " قبل أن يستعد (الطالب) لفهمهـــا .. كـــل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم فى نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى فى هجرانه ، وإنما أتى ذلك من سوء التعليم " [٢] .

وإلى نفس المعنى ذهب ابن جماعة فى شرحه لما ينبغى أن يفعله المعلم مع تلاميذه ، إذ نصـــحه بألا " يلقى إليه ما لم يتأهل له ، لأن ذلك يبدد ذهنه ويفرق فهمه " . ولكن ماذا تكون استجابة المعلم إذ ألقى إليه التلميذ بسؤال عن موضوع يعرف المعلم أنه فوق مستوى الطالب ويعلو قوة استعداده ؟ يجيب ابن جماعة " فإن سأله الطالب شيئا من ذلك لم يجبه ، ويعرفه أن ذلك يضره ولا ينفعه ، وإن منعه إياه لشفقة عليه ولطف به لا بخلا عليه ، ثم يرغبه عند ذلك فى الاجتهاد والتحصيل ليتأهل لذلك وغيره ... " [٣] .

---

[١] مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٣٣ .
[٢] المرجع السابق ، ص ٥٣٤ .
[٣] ابن جماعة ، ص ٥١ – ٥٢ .

وفى القرآن الكريم آيات متعددة تجلى هذا المبدأ مثل :

﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [١] .

﴿ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [٢] .

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ [٣] .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [٤] .

وينصح الغزالى المعلم بأن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله ، فينفره أو يتخبط عليه اقتداء فى ذلك بالرسول ﷺ الذى نقل عنه قوله : " نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم " ، فليبدأ إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها ؛ ولذلك قيل : كلْ لكل عبد بمعيار عقله ، وزِنْ له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت الميعاد " [٥] .

٦- الفروق الفردية :

وإذا كان من المهم أن يراعى فى العمل استعداد الفرد وقدرته ، فإن مما يكمل هذا المبدأ مبدأ آخر هو تفاوت الناس فى الاستعدادات والقدرات .

إن هذه القاعدة فى تفاوت قدرة الناس ومواهبهم ، لم يستطع أى نظام أن يخالفها أو ينكرها ، بل إن المساواة التامة بين الأفراد وعدم التفاوت أو على الأقل التقارب الشديد فى المقدرة وبالتالى عدم التفاوت فى الأعمال وعدم التخصص هو من سمات المجتمعات البدائية ، وعلى العكس من ذلك ، أن تنوع الاختصاصات وكثرة التفاوت نتيجة لذلك من سمات المجتمعات الراقية [٦] .

قال الله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [٧] ، أى أن الله خلق الناس متفاوتين يقدم كل واحد منهم من الأعمال ما يحتاج إليه الآخر ، كذلك

---

[١] البقرة / ٢٨٦ .
[٢] البقرة / ٢٣٣ .
[٣] الطلاق / ٧ .
[٤] التغابن / ١٦ .
[٥] الغزالى : إحياء علوم الدين .
[٦] محمد المبارك : نظام الإسلام ، الاقتصاد ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٤٤ .
[٧] الزخرف / ٣٢ .

الآخـــر بالمقابـــل ، بمعنى أن كل واحد بالنسبة إلى غيره مسخر على وجه التبادل والتعاون ، فأهل الحرف مثلا كالخباز والنجار والحداد يسخرون المعلم لتعليم أولادهم ، والمعلم يسخرهم لمـــا يحـــتاج إلـــيه من خبز أو نجارة أو حدادة ، وكذلك الطبيب والمهندس والمزارع والبناء والموظف وسائر أصحاب الأعمال يسخر بعضهم بعضا فيما يتقنونه ويحسنونه ويقدمونه من أعمال وخدمات بالتقابل والتبادل .

وبهـــذا المعنى ، فسر الزمخشرى والرازى وابن كثير وغيرهم هذه الآية الكريمة : فقد قال الزمخشرى " ليرتفق الناس بعضهم ببعض " . وقال ابن كثير " قيل معناه ليسخر بعضهم بعضـــا فى الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا " . وقال الرازى : " جعل تعالى ذكره بعضا لبعض سببا فى المعاش فى الدنيا " [١] .

ومـــن هـــنا نجـــد مفكرا مثل الغزالى ، يرى وجوب الوقوف على درجة الإصابة ونوع المـــرض وســـن المريض فى حالة تأديب الأطفال ورياضتهم ، لأن المعلم كالطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد ، قتل أكثرهم وأمات قلوبهم ، ويؤكد الغزالى أن من الأطفال من يتميز بالحياء والحساسية ، فينبغى ألا يهمل مثل هذا الصبى ، وإنما يستعان على تأديبه بحيائه وتميزه .. وإذا ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود ، فيلزم أن يكرم عليه ويجازى عليه ويمدح بين الناس . أما إذا أخطأ فى بعض الأحيان مرة واحدة ، فالأفضل أن يتغافل عنه ولا يهتك سره ولا يكاشفه ، فإذا أعاد ، فينبغى أن يعاقب سرا [٢] .

٧- الأخلاقية :

والمراد بالأخلاقية هنا هى ما يعبر عنه فى الأدب الإسلامى بـــ " العمل الطيب " ويقابله " العمـــل الخبيث " ، وقد وردت فى القرآن الكريم آيات تدل على وجوب التمييز بين الأعمال على هذا الأساس :

- ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [٣] .
- ﴿ وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ [٤] .

---

[١] المبارك ، ص ٤٥ .
[٢] أحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، ص ٦٦ .
[٣] آل عمران / ١٧٩ .
[٤] النساء / ٢ .

- ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [١] .
- ﴿ لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ ﴾ [٢] .

الأعمال إذن قد تكون طيبة ، وقد تكون خبيثة ، ولكن الإسلام يأمر بالطيب ، وينهى عن الخبيث فهذا هو القرآن يقول فيه سبحانه وتعالى :

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [٣] .
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ ﴾ [٤] .

فالحكم على العمل أصالح أم غير صالح ، ومعرفة قيمته ، يرجع إلى مراعاة المبادئ الأخلاقية التى أمر بها الشارع ، من الابتعاد عن الغش والاحتيال والخديعة والسرقة وما إلى ذلك من مساوئ تنقص من قيمة العمل حتى لو أعجبنا [٥] .

من أجل ذلك نجد ابن جماعة يوجب على المعلم دوام مراقبة الله تعالى جهرا وسرا ، والمحافظة على خوفه من جميع حركاته وأقواله وأفعاله ، على أساس أن ذلك من شأنه أن يكون زاجرا له عن الإتيان بالمشين من الأفعال ، واستدل فى ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . واستشهد أيضا بقول الشافعى : " وليس العلم ما حفظ ، العلم ما نفع ، ومن ذلك دوام السكينة والوقار والخشوع والتواضع والخضوع " [٦] .

كذلك ينصحه " أن يتنزه عن دنئ المكاسب ورذيلها طبعا ، وعن مكروهها عادة وشرعا " [٧] ، وكذلك عليه أن " يتجنب مواضع التهم وإن بعدت ، ولا يفعل شيئا يتضمن نقص مروءة أو ما يستنكر ظاهرا وإن كان جائزا باطنا ، فإنه يعرض نفسه للتهمة ويحرضه للوقيعة ، ويوقع الناس فى الظنون المكروهة وتأتيهم الوقيعة " .

---

[١] المائدة / ١٠٠ .
[٢] الأنفال / ٣٧ .
[٣] البقرة / ٢٦٧ .
[٤] المائدة / ٨٧ .
[٥] الأهوانى ، القيم الروحية ، ص ٩٦ .
[٦] تذكرة السامع والمتكلم ، ص ١٥ .
[٧] المرجع السابق ، ص ١٩ .

وعـند اختيار الطالب للمعلم الذى سيتلقى منه العلم ، يوجب ابن جماعة مراعاة الجانب الأخلاقـى وعدم الاكتفاء بالجانب المعرفى فقط ، فيقول : " إنه ينبغى للطالب أن يقدم النظر ويسـتخير الله فيمن يأخذ العلم عنه ، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه ، وليكن إن أمكن ممن كملت أهليته وتحققت شفقته وظهرت مروءته ، وعرفت عفته واشتهرت صيانته .. ولا يرغب الطالب فى زيادة العلم مع نقص فى ورع أو دين أو عدم خلق جميل ... " [١] .

٨- الإتقان :

والإتقـان هو المعيار الذى نزن به قيمة العمل من حيث السمو والضعة ، ونحن نعلم أن الـناس ليسـوا سـواء فى أداء أعمالهم ، إذ بعضهم يرتفع بعمله ، فيرفعه عمله ، وبعضهم الآخـر يهمل فيه ويخرجه ناقصا أو معيبا ، وليس من الضرورى أن يكون ذلك عن قصد ، بل كثيرا ما يكون عن إهمال وسوء تعليم ولا شك إذن فى أن قيمة العمل تتدرج فى سلم من حـيث الإتقـان والكمـال ، والنقص والإهمال ولكن العمل المتقن الذى يحسن صاحبه عمله وإخراجه يكون كالجوهرة تتألق فتبهر الأبصار .

ومـن هـنا نجـد الرسول ﷺ يدعو إلى الإحسان فى كل عمل ، وهو المعنى المرادف لمعنى الإتقان ، فمما حفظه شداد بن أوس عن الرسول قال : " إن الله كتب الإحسان على كل شـئ ، فـإذا قتلتم ، فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحـته " . فـإذا كـان الإحسان مطلوبا فى الأعمال التى لا تترتب عليها نتائج مؤثرة فى الجماعـة ، فأحـرى به أن يطلب فى الأعمال ذات القيمة الاجتماعية ، فالقتل فى الجهاد فى سبيل الله والذبح تنتهى آثارهما أو تكاد بإتمام إنجازهما ، ومع هذا لابد من الإحسان فيهما – رحمة من ناحية ، وإكسابا للإنسان عادة الإتقان من ناحية أخرى [٢] .

ويعلمنا الرسول ﷺ الإتقان فى موقف آخر ، فبعد أن وارى ابنه إبراهيم التراب ، صلى عليه ، وسوى عليه القبر بيده ، ورش فوق القبر الماء ، ووضع عليه علامة ثم قال : " إنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تقر عين الحى ، وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه " [٣].

---

[١] المرجع السابق ، ص ٨٥ .

[٢] سيد أحمد عثمان : المسئولية الاجتماعية فى الإسلام ، الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٢٤ .

[٣] المرجع السابق .

أما أصداء ذلك فى فكرنا التربوى ، فهو يتضح لنا من دراسة عدد من النصوص الهامة فـــى هـــذا الشـــأن ، فهذا هو الغزالى ينصح طالب العلم " ألا يخوض فى فن من فنون العلم دفعة، بل يراعى فى الترتيب ويبتدئ بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا، فالحـــزم أن يأخـــذ من كل شئ أحسنه " [١] . فهو هنا يرشد إلى الطريقة السليمة المؤدية إلى الإتقان ، وهى " التدرج " أو ما يسميه هو " الترتيب " . كما أنه يطالب المتعلم بألا ينتقل من جانـــب من المعرفة إلى آخر قبل أن يتقن الأول ، فيقول : " ألا يخوض فى فن حتى يستوفى الفـــن الذى قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا ، وبعضها طريق إلى بعض والموفق من راعـــى ذلك الترتيب والتدرج ، قال الله تعالى : " الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته " ، أى لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا [٢] .

وإلـــى نفـــس المعنى ذهب ابن خلدون بمطالبته المعلم ألا " يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتـــى يعيه (يقصد التلميذ) من أوله إلى آخره ، ويحصل أغراضه ويستولى منه على ملكة بها ينفذ فى غيره ، لأن المتعلم إذا حصل على ملكة ما فى علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقى وحصل له نشاط فى طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولى على غايات العلم، وإذا خلـــط علـــيه الأمـــر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وأطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم " [٣] . والملكة التى يشير إليها ابن خلدون هنا هى المصطلح الذى يؤدى المعنى الذى نفهمه من مصطلح " المهارة " ، وبالطبع لا يمكن أن تتكون مهارة إلا بالإتقان .

أمـــا نصـــر الـــدين الطوســـى ، فـــيؤكد على ثلاثة أركان لا قوام للإتقان إلا بها وهى " الجد " ، " المواظبة " ، و " الهمة " ، فيقول راسما الخطوط العريضة التى ينبغى أن يسلكها المـــتعلم : " ثم لابد له من الجد والمواظبة والملازمة " ، وأيضا يقول : " ولابد لطالب العلم مـــن المواظـــبة علـــى الدرس " ، وكذلك " ولابد لطالب العلم من الهمة العالية فى العلم " . ويـــؤكد أنـــه " إذا كانـــت له إلا القليل من العلم وينبغى أن يبعث نفسه على التحصيل والجد والمواظبة بالتأمل فى فضائل العلوم ودقائقها " [٤] .

---

[١] ميزان العمل ، ص ٢٣٩ .
[٢] المرجع السابق، ص ٣٥٠ .
[٣] مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٣٤ .
[٤] فى آداب المتعلمين ، مرجع سابق ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

٩- الجزاء :

وكمـــا أنـــنا نعلـــم أن مـــن سنن الكون ارتباط الأسباب بالمسببات ، أو كما يقول أهل المـــنطق ، ارتـــباط العلة بمعلولها وجودا وعدما وتغيرا نسبيا ، فإننا نجد نفس الشئ بالنسبة للعمـــل ، إذ أنـــه هـــنا يعتبـــر بمثابة السبب الذى تكون له نتيجة ، أو العلة التى يكون لها معلولها ، والنتيجة هنا ، هى ذات جانبين ، جانب موضوعى وجانب ذاتى ، أما الموضوعى فهـــو يكمـــن فـــى التغير الذى يحدث نتيجة العمل والنشاط أو هو الثمرة الواقعية المِشخصة للعمـــل ، أمـــا الجانـــب الذاتى ، فهو ما يعود على القائم بالعمل من نتائج سواء كانت نتائج معنوية – أم مادية ، والمعنوية تلك التى تتمثل فيما قد يشعر به العامل من سعادة أو ما يلقاه مـــن تشـــجيع وتأييد واستحسان وتقدير ، والمادية تتمثل فى أغلب الأحوال فى (أجر) يلقاه بالإضـــافة طـــبعا فـــى مـــا يكسبه القائم من مزيد من المران والصقل والعديد من الجوانب الشخصية الأخرى .

والعمـــل فى الإسلام منه ما هو فرض عين ، ومنه ما هو فرض كفاية ، والأعمال التى هى فرض عين هى تلك التى تدخل فى باب العبادات مثل الصلاة والصيام وما أشبه ، ولابد لكـــل مســـلم مـــن القيام بها ، أما تلك التى هى فرض كفاية ، فمثل المهن والحرف وسائر الوظائـــف التـــى تشتمل عليها الأمور المعاشية . وهنا يكفى أن تقوم طائفة بالتدريس مثلا ، وكذلك فى كل عمل ، ولا ضرورة لباقى الفئات والطوائف أن تقوم به . وهذا وذاك من هذه الأعمـــال ينبه الله سبحانه وتعالى إلى أن هناك جزاء عليها ، والجزاء الذى يوعد به الإنسان هو جزاء دنيوى وآخر أخروى ، فمن أمثلة الجزاء الدنيوى ، ما يذكره الله تعالى فى القرآن الكـــريم : ﴿ وَمَـــن يَـــتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [١] و ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [٢] . وأمـــا تـــرتب الخيـــر على الفعل فى الآخرة ، فمثل قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِـــيهَا بِغَيْـــرِ حِسَابٍ ﴾ [٣] . وقوله تعالى : : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ [٤] .

---

[١] الطلاق / ٣ .
[٢] فصلت / ٣٤ .
[٣] غافر / ٤٠ .
[٤] الكهف / ١٠٧ .

وقد أظهر ابن جماعة فى آرائه التربوية وعيا بضرورة الربط بين العمل والجزاء ، وأن هـذا مـن شـانه أن يشجع الطالب المصيب أن تثبت لديه مهارات العمل الجيد ، ولأن يتعلم الطالـب المخطـئ أوجـه الخطأ فيتلافاها فيما بعد ، فقال بعد أن طالب المعلم بالقيام بعملية تقـويم للتلاميـذ بسـؤالهم عمـا تلقـوه " فمن رآه مصيبا فى الجواب ولم يخف عليه شدة الإعجاب ، شكره وأثنى عليه بين أصحابه ، ليبعثه وإياهم على الاجتهاد فى طلب الازدياد ، ومن رآه مقصرا ولم يخف نفوره ، عنفه على قصوره وحرضه على علو الهمة ونيل المنزلة فى طلب العلم لا سيما إن كان ممن يزيده التعنيف نشاطا والشكر انبساطا ... " [١] .

وفـى موضـع آخـر يسـوق ابن جماعة رأيا أكثر صوابا ، وخاصة بالنسبة للتلميذ لا المخطـئ ، فيقول مطالبا المعلم " أن يراقب أحوال الطلبة فى آدابهم وهديهم وأخلاقهم باطنا وظاهرا ، فمن صدر منه من ذلك ما لا يليق من ارتكاب محرم أو مكروه أو مما يؤدى إلى فسـاد حال أو ترك اشتغال أو إساءة أدب فى حق الشيخ أو غيره أو كثرة كلام بغير توجيه وفائـدة ، أو حرص على كثرة الكلام أو معاشرة من لا تليق عشرته أو غير ذلك .. عرض الشـيخ بالنهى عن ذلك بحضور من صدر منه غير معرض به ولا مهين له ، فإن لم ينته ، نهـاه عـن ذلك سرا ، ويكتفى بالإشارة مع من يكتفى بها ، فإن لم ينته نهاه عن ذلك جهرا ويغلظ القول عليه إن اقتضاه الحال لينزجر هو وغيره ويتأدب به كل سامع ، فإن لم ينته فلا بـأس حينـئذ بطـرده والإعراض عنه إلى أن يرجع ولا سيما إذا خاف على بعض رفقائه وأصحابه من الطلبة موافقته " [٢] .

١٠- التطبيق :

إن الـدين هـو فعل الواجبات لقوله تعالى : : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الـدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [٣] ، بل لقد أشار الرسول إلى الفعـل السئ مبينا مخالفته للإيمان : لا إيمان لمن لا أمانة له – الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا اله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق – لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن " [٤] ..

---

[١] تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٥٤ .
[٢] المرجع السابق ، ص ٦٠ – ٦١ .
[٣] البينة / ٥ .
[٤] الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى ، ص ١١١ .

ولا تكاد آية في القرآن يذكر فيها وعد للذين آمنوا إلا وقد اقترن بها " وعملوا الصالحات " ، ويقترن العمل الصالح بالإيمان فى أكثر من خمسين آية من القرآن ، بل لم يذكر " الذين آمنوا " دون اقتران بـ " وعملوا الصالحات " إلا فى موضع التشريع أمرا أو نهيا ، وذلك كما ترى فى قوله تعالى : " كتب عليكم الصيام " و " اتقوا الله " و " كتب عليكم القصاص " ، فدل اقتران العمل الصالح بالإيمان بصدد آيات الوعد على أن الإيمان الذى يستحق به الإنسان التوفيق هو إيمان مقيد مقرون بالعمل الصالح ، أما الإيمان الذى لم يقرن بالعمل الصالح ، فلا توفيق لصاحبه [١] .

كذلك اقترنت الفرائض الدينية بصالح الأعمال ، فإقامة الصلاة تبعها فى أكثر من آية إيتاء الزكاة ، كما اشترط لصحة الصيام زكاة الفطر . وكان التكفير عن السيئات أو فعل المحظورات يقتضى الإحسان كتحرير رقبة أو إطعام مساكين ، فدل ذلك كله على أن الإيمان يقتضى العمل الصالح ويحتمه .

ويتساءل الخطيب البغدادى : " وهل جامع كتب العلم إلا كجامع الفضة والذهب ؟ وهل المنهوم بها إلا كالحريص الجشع عليهما ، وهل المغرم بحبها إلا ككانزهما ؟ وكما لا تنفع الأموال إلا بإنفاقها ، وكذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها وراعى واجباتها " [٢] .

ومن الآثار التى تساعد على أهمية التطبيق ما يروى عن الرسول ﷺ " لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ماذا عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه " [٣] .

وعن أبى الدرداء أنه قال : " إنك لن تكون عالما حتى تكون متعلما ، ولن تكون متعلما حتى تكون بما علمت عاملا " [٤] .

ومن هنا جعل الغزالى العمل بما يعلم واجبا أساسيا لا تتم شروط التعليم إلا به ، معبرا عن ذلك بقوله [٥] : " فلا يكذب مقاله بحاله ، فينفر الناس عن الاسترشاد والرشد " ، وهو فى ذلك يبنى رأيه على قضية منطقية تقول إن العمل مدرك بالبصر ، والعلم بالبصيرة ،

---

[١] الزمخشرى : الكشاف ، تفسير آية " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم " جـ ١ ، ص ٤١٧ .
[٢] اقتضاء العلم والعمل ، ص ١٦ .
[٣] المرجع السابق ، ص ١٧ .
[٤] المرجع السابق ، ص ٢٦ .
[٥] ميزان العمل ، ص ٣٧٠ .

وأصـــحاب الأبصار أكبر من أرباب البصائر " فلتكن عنايته بتزكية أعماله أكثر منه بتحسين علمـــه ونشره " . ويستعين الغزالى بتشبيه طريف عندما يقول : " المتعظ من الواعظ يجرى مجـــرى الطـــين من النقش والظل من العود ، وكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ، وكيف يستوى الظل والعود أعوج ؟ " . ثم يستشهد بقوله تعالى : ﴿ {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [١] .

ثالثا – مظاهر الاتجاه العملى

١- المعرفة المكتسبة :

تعتبـــر نظـــرية المعرفة من أهم المجالات الفلسفية التى دارت على أرضها رحى العديد مـــن الجـــولات الفكرية لمختلف الفلاسفة والمفكرين شرقا وغربا ، قديما ووسيطا وحديثا ، والذين عالجوها من أبواب مختلفة ، مثل مصدرها وطبيعتها ومجالاتها ونتائجها وهكذا . وإذ نثبت هنا أننا نقتفى أثر القول باكتساب المعرفة وأهمية الحواس فى عملية الاكتساب ، فإننا لا نقصـــد بـــأى حـــال مـــن الأحوال أن نثبت حكما عاما شاملا على التراث الفكرى التربوى الإســـلامى ، بأنه كان فى هذا الجانب ولم يكن فى اتجاه جانب آخر ، وإنما نحن فقط نذهب إلـــى أنـــه قد كانت هناك آراء وأقوال تؤمن وتؤكد أن المعرفة إن لم تكن كلها ، فعلى الأقل جـــزء منها نحصل عليه بالخبرة والتجربة وأنها ليست بالكامل فطرية ، وأن النتيجة المترتبة علـــى ذلـــك هى أيضا وجود اتجاه يؤمن بأهمية الحواس وضرورتها فى اكتساب المعرفة ، وذلك كمظهر من مظاهر الاتجاه العملى فى تراثنا الفكرى .

فاســـتقراء القرآن الكريم يؤكد لنا أنه يذهب إلى أن الإنسان عندما يولد ، يكون خاليا من المعـــارف إذ يقول : ﴿ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ [٢] . وفى مكان آخـــر يذكر : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ [٣] . ثم بعد أن يقرر أن الإنسان قد خلق بلا علم ولا معرفة ، يذهب إلى أنه قد زود بعدد من الحواس تمكنه مـــن تجاوز هذه الحالة والانتقال إلى حالة العرفان والعلم ، ومن هنا نجده يتبع النص الأول

---

[١] المرجع السابق ، ص ٣٧١ .
[٢] النحل / ٧٨ .
[٣] الإنسان / ١ .

بقوله : " ... وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون " . وكذلك فى النص الثانى يكمله بقوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ .

وهناك عديد من الآيات التى تتناول كل حاسة وبيان أن لها دورها فى اكتساب المعرفة [١] .فمن ذلك حاسة اللمس ، إذ جاء فيها ما نصه :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [٢] . أما الشم ، فقد جاء فيه ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [٣] . ومما يؤكد أن السمع من الأدوات التى تؤدى إلى التعليم قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [٤] . أما البصر فقد طلب القرآن فى كثير من الآيات أن يستخدمه الإنسان كى يصل إلى المعرفة اليقينية ، مثل قوله ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [٥] . وقال ﴿ وَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [٦] .

ولقد سفه القرآن هؤلاء الذين يعطلون عمل أدوات المعرفة ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [٧] . بل لقد طالب بطريقة مباشرة بألا نتبع فى حياتنا ما ليس لنا به علم حيث أن لدينا الأدوات التى تمكنا من المعرفة ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [٨] .

ويجعل ابن سينا " المحسوسات "مصدرا من مصادر المعرفة ، فيقول ، إن قولنا – مثلا – بأن الثلج بارد لا يتم إلا إذا اقترن العقل بالحواس " [٩] .

---

[١] عبد الفتاح جلال : من الأصول التربوية فى الإسلام ، المركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى العالم العربى ، سرس الليان (مصر) ، ١٩٧٧ ، ص ١٠٤ وما بعدها .
[٢] الأنعام / ٧ .
[٣] يوسف / ٩٤ .
[٤] المائدة / ٨٣ .
[٥] يونس / ١٠١ .
[٦] الأعراف / ١٨٥ .
[٧] الأعراف / ١٧٩ .
[٨] الإسراء / ٣٦ .
[٩] محمد عاطف العراقى : ثورة العقل فى الفلسفة العربية . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٥٠ .

كـذلك يستوقفنا إصرار فريق مثل " إخوان الصفا " على النظرة العقلية الحسية فيقولون فى البراهين العقلية ومنزلتها : واعلم أن البراهين هى ميزان العقول ، كما أن الكيل والذرع والشـاهين مـن مـوازين الحواس ، وكما أن الناس إذا اختلفوا فى حرز شئ وتخمينه من الأشـياء المحسوسـة رجعـوا عـند ذلـك إلـى دلـيل وبـرهان وما ينتج من المقدمات الضـرورية " [١] . وإذا كـان هـذا النص يظهرنا على التعاون بين العقل والحواس إلا أن إخوان الصفا يذهبون إلى ما هو أكثر تجريبية فى موضع آخر ، إذ يؤكدون أن الحواس هى وسـيلة الإدراك حتـى بالنسبة لعالم المعقولات ، فيقولون : " نبدأ أولا بذكر القوى الحساسة الخمـس إذ كانت هى أول قوى النفس التى ينال بها الإنسان العلوم والمعارف ... " [٢] ، ثم يـبالغون الـذروة بتقريـرهم الصفة الكسبية للمعرفة عندما يقولون : " واعلم أن مثل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم واعتقاد من الآراء كمثل ورق أبيض نقى لم يكتب منه شئ ... " [٣] .

وبالطـبع فـإن الإيمـان بكسـبية المعرفة يعطى التربية مددا ضخما ، إذ ستكون هى المسـئولة عن القيام بدور إكساب الإنسان المعارف الجديدة والأمر على العكس من ذلك فى القـول بفطريتها . وإذا كان للتربية من دور هنا فسوف يكون دورا ثانويا لا يتعدى الكشف والتنظيم ، أما فى الحالة الأولى ، فهناك فرص الإبداع والابتكار .

٢- نبذ التواكل :

ومـن أظهـر مظاهـر الاتجاه العملى فى تراثنا ، أن ليس فى القرآن لفظ التواكل بأى صـيغة من الصيغ على الإطلاق ، وإنما الذى فيه ، توكل على الله مسبوق بالعزم ومشروط به : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [٤] .

ولقد ظن قوم أن التوكل لا يستلزم الأخذ بالأسباب ، ومن هؤلاء ، الأعرابى الذى ترك ناقته طليقة خارج المسجد ، فقال له الرسول ﷺ : " اعقلها وتوكل " .

ومنهم من يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [٥]

---

[١] زكى نجيب محمود : المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى ، دار الشروق بيروت ، د.ت ، ص ١٨٢ .
[٢] المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
[٣] آداب المتعلمين ، ص ٥٧ .
[٤] آل عمران / ١٥٩ .
[٥] هود / ٦ .

فـيقول مالـــى وللسعى والكد فى طلب الرزق ، وقد كفل الله لى نصيبى منه ، فهو يأتينى به حيث أكون ، ولو لم أنقل قدما أو ابذل جهدا فى سبيل تحصيله . ولو تدبر قوله تعالى لعلم أن الله كفل الرزق لكل " دابة " أى لكل مخلوق يدب على الأرض ، فهو يسعى فى طلب رزقه ، يعمـــل لتحصـــيل معاشه ، فلا يعود من سعيه إلا وقد أصاب رزقه وجنى ثمرة عمله [١] . ويـــؤكد هذا المعنى قول الرسول : " لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا [٢] ، وتروح بطانا [٣] " .

لم يقل الرسول أن الله يرزق الطير وهى قابعة فى أوكارها ، ولكنها تغادر أوكارها فى الصـــباح جائعـــة خاوية ، فتنطلق وهى تضرب بأجنحتها هنا وهناك بحثا عن ثمار الأشجار وســـنابل الحقـــول وحشـــرات الأرض والماء .. وما تزال تجمع من هذا وذاك حتى تمتلئ حواصلها ، فتعود إلى أعشاشها وقد أصابت رزقها ورزق أفراخها الصغار .

ويـــؤكد هذا أيضا أن الرسول أبى أن يعطى سائلا سأله ، ودله على عمل يرتزق منه ، وفى هذا يقول أنس : أن رجلا من الأنصار أتى النبى ﷺ يسأله ، فقال : أما فى بيتك شئ ؟ قـــال : بلى حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه [٤] ، وقعب نشرب فيه الماء . قال : ائتنى بهما فأتاه بهما ، فأخذهما الرسول بيده وقال : من يشترى هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم ، قـــال رســـول الله ﷺ : مـــن يـــزيد علـــى درهم مرتين أو ثلاثة ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاه إياه ، فأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى ، وقال : اشتر بأحدهما طعاما فأنـــبذه إلى أهلك واشترى بالآخر قدوما فأتنى به ، فأتاه به ، فشد فيه رسول الله عودا بيده ، ثـــم قـــال : اذهـــب فاحتطب وبع ولأرينك بعد خمسة عشر يوما ، ففعل فجاء ، وقد أصاب عشـــرة دراهـــم فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما ، فقال له الرسول : هذا خير لك أن تجئ المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة [٥] .

ومن هنا وجدنا ذلك الحث الواضح للسعى فى سبيل التعلم والحصول على المعرفة دون الاعـــتماد علـــى أصـــل أو حســـب ودون الـــركون إلى سلطة ما ، فعند إخوان الصفا أنه

---

[١] محمد كامل حته : القيم الدينية والمجتمع ، ص ٨٩ .
[٢] جائعة فارغة البطن .
[٣] ممتلئة البطن من الشبع .
[٤] حلس البيت ، ما يبسط تحت حر المتاع ، ويقال لبساط البيت الحلس .
[٥] عياد : شريعة الإسلام ، ص ٣٢ .

مـــا مـــن " فريضـــة من مفروضات الشريعة ومن أحكام الناموس ولا أفضل ولا أكمل ولا أشـــرف ولا انفـــع للعـــبد (بعد الإيمان) ... من العلم وطلبه وتعلمه " [١] . وهم فى ذلك يستشهدون بقول الرسول : تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله تعالى حسنة وطلبه عبادة ، ومذاكرته تســـبيح والـــبحث عنه جهاد وتعلمه لمن لا يعلم صدقة وبذله لأهله قربة ، فإنه معالم الحلال والحرام وبيان سبل الخير ..

وكمـــا أن اكتســـاب المال يساعد الإنسان على ألا يعيش عالة على غيره فيفقد حريته ، فكـــذلك بذلـــه الجهد للتعلم ، وفى ذلك كتب الغزالى يقول [٢] : " اعلم أن للإنسان فى عمله أربعة أحوال كحاله فى اقتناء الأموال ، إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا ، وحال ادخار لما اكتسبه ، فيكون به غنيا عن السؤال ، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعا ، وحال بـــذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم يقتنى المال ، فله حال واكتســـاب ، وحـــال تحصـــيل يغنى عن السؤال ، يقتنى المال ، فله حال واكتساب ، وحال تحصـــيل يغنى عن السؤال ، يقتنى كما ، وحال استبصار ، وهو التفكر فى المحصل والتمتع به ، وحال تبصير وهو أشرف الأحوال ، فمن علم وعمل وعلم ، فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السموات ، فإنه كالشمس تضئ لغيرها ، وهى مضيئة فى نفسها .. " .

٣- طريقة التعليم :

لم تعكس طريقة التعليم فى الفكر والواقع التربوى الإسلامى كل مقومات الاتجاه العملى، وإنما نجد أنها قد جنحت فى بعض جوانبها ناحية النظر والتجريد وجنحت فى البعض الآخر ناحية الواقع والعمل والتطبيق مما يجعل من الصعب إصدار حكم عام عليها ..

وأول جانـــب مـــنها لا ينحو الناحية العملية ، وهو شيوع ظاهرة " التلقين " والميل إلى الحفـــظ . ذلـــك أن أول مـــا كان يتعلمه الطفل هو القرآن الكريم وكان تعليمه يتم بأن يكرر الطفـــل [٣] ما يذكره المعلم من فقرات إلى أن يتم له حفظها بطريقة آلية ، ولم يعن المدرس فـــى هذه العملية بالشرح فى هذه المرحلة وتوضيح المعنى لتعذر الفهم على الطفل . وربما كان ذلك راجعا إلى تأثر المسلمين طوال أزمانهم بما كان يتبع العصر الإسلامى الأول عندما

---

[١] آداب المتعلمين ، ص ٥٥ .
[٢] المرجع السابق ، ص ٩٧ .
[٣] أسماء فهمى : مبادئ التربية الإسلامية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٩٦ .

كان الاعتماد على الذاكرة أكثر من الاعتماد على الكتابة لقلة العارفين بها ، وقد كان للعرب شهرة واسعة فى الحفظ وقوة الذاكرة نتيجة الممارسة والمران الطويل .

ولكـــن ذلك لم يمنع من ظهور آراء تنقد هذه الطريقة مثلما نرى لدى ابن خلدون ، الذى يـــذهب إلـــى أن البدء بحفظ القرآن بلا فهم ، إنما هو أمر يدل على الغفلة ، ولكنه يستدرك بقوله ، إن التعليم بخلاف ذلك أمر لا تساعد العوائد عليه [١] .

وأكـــد نصـــر الدين الطوسى على أهمية " الفهم " فينصح التلميذ أن يبتدئ بشىء يكون أقرب إلى فهمه ، ويقول " ولا يتكسب المتعلم شيئا لا يفهمه ، فإنه يورث كلالة الطبع ويذهب الفطنة ويضيع أوقاته ، وينبغى أن يجتهد فى الفهم عن الأساتذة " [٢] .

أما " القدوة " فإنها صورة عملية نلجأ فيها إلى تقديم نموذج واقعى حى لما نريد أن نربى الناشـــئ علـــيه ، وقـــد حظـــيت بالكثير من اهتمام المربين الإسلاميين بحيث يصعب علينا حصـــرها ، بـــل الإشـــارة إلى معظمها ، من ذلك ما يذهب إليه اخوان الصفا من ضرورة " تعويد " الطلاب على المهارات والأمور التى يقصدون تعلمها فيقولون : " واعلم أن العادات الجاريـــة بالمداومـــة عليها تقوى الأخلاق المشاكلة لها ، كما أن النظر فى العلوم والمداومة علـــى البـــحث عـــنها والـــدرس لها والمذاكرة فيها يقوى الحذق بها والرسوخ فيها ، وهكذا المداومة على استعمال الصنائع والتدريب فيها يقوى الحذق بها والأستاذية فيها ، وهكذا حكم الأخـــلاق والعـــجايا " ، ويضـــربون مـــثالا لذلك بالطفل الذى ينشأ مع الشجعان والفرسان وأصـــحاب العـــلاح ، إذ عادة ما ينشئون وقد تعودوا الشجاعة ، وعلى العكس من ذلك إذا نشأوا مع النسوان – بأوضاعهم السابقة – والمخانيث ، وتربوا معهم ، اتطبعوا بأخلاقهم إن لـــم يكـــن فـــى كـــل سلوكهم ، ففى البعض ، وعلى هذا القياس يجرى حكم سائر الأخلاق والعـــجايا التـــى ينطـــبع علـــيها الصبيان من الصغر إما بأخلاق الآباء والأمهات أو الأخوة والأخوات أو الأتراب والأصدقاء والمعلمين والأساتذة المخالطين لهم . " [٣] .

كـــذلك نجـــد فى " اللعب " مظهرا عمليا أخرا وإن لم يستغل كوسيلة للتعليم وكجزء من العمـــل مـــثلما تذهب المذاهب التربوية الحديثة ، فقد قدر كثير من المربين الإسلاميين حاجة

---

[١] مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٣٩ ، ٥٤٠ .
[٢] آداب المتعلمين ، ص ١٤٨ .
[٣] المرجع السابق ، ص ٤٨ .

الطفل إلى اللعب الترويحى واعتبرته لهذا الغرض مهما من الناحيتين العقلية والجسمية ، فنصح الغزالى بأن يسمح للطفل بان يلعب لعبا جميلا بعد انقضاء ساعات الدرس ليجدد نشاطه بشرط ألا يجهد نفسه " فإن منع الصبى من اللعب وإرفاقه إلى التعليم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش " [١] .

ويسلك " العبدرى " مسلك الغزالى تماما ، فيحبذ بشدة ضرورة الألعاب والترويح عن الطفل [٢] . وقد قدرت المعاهد الإسلامية أهمية تحديد أوقات العمل والترويح بالنسبة للأطفال فمنحتهم يوما ونصف يوم عطلة فى كل أسبوع : نصف يوم الخميس ويوم الجمعة علاوة على المسامحات الخاصة بالأعياد وكذلك الأجازات فى مناسبات حفظ القرآن .

ويلفت الدكتور سيد عثمان [٣] الأنظار إلى أهمية " الأنشطة " ، فى عملية التعليم عند الزرنوجى ، فليست أنشطة المتعلم منفصلة عن محتواها ومراميها ، كما أن الأنشطة ليست منفصلة عن دافعية الأنشطة ذلك لأنها – أى الأنشطة – من الدافعية وفيها ومؤدية إليها " نعم ليست الأنشطة شروطا مؤدية إلى التعليم أى تؤدى إليه وهى خارجة عنه ، بل هى التعلم ، هى داخلة فيه ، هى جزء منه ، هى شكله ومحتواه ، وهى غايته ومرماه ، فليست أنشطة الفهم مثلا ، شيئا مغايرا للفهم ، بل هى الفهم ، وليست أنشطة تعلم السلوك الخلقى مختلفة عن الخلق بل هى الخلق " .

ولعل ما كتبه ابن خلدون عن أهمية " الرحلات " كمصدر للمعلومات ، ربما يكون من أكثر ظواهر الاتجاه العملى وضوحا حيث أن صياغته نفسها تنطق بالكثير مما نود قوله فى هذا المجال ولا تلجئنا إلى تأويل أو شرح وتفسير ، فهو يعقد فصلا بعنوان " فى أن الرحلة فى طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد فى التعليم " . وهو يفسر هذه العبارة بأن " البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما ولقاء تارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة . إلا أن حصول الملكات عن المباشرة .. أشد استحكاما وأقوى رسوخا " [٤] ، فها هو يضع أمامنا الطريقين المتقابلين ، طريق التعلم عن الكتب

---

[١] أحياء علوم الدين ، جـ ٣ ، ص ٦٨ .
[٢] أسماء فهمى ، ص ١١٣ .
[٣] التعلم عند برهان الإسلام الزرنوجى ، ص ٦٣ .
[٤] مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٤١ .

والمحاضرات وطريق التعلم بالخبرة ، ويؤكد أن الطريق الثانى نتائجه أكثر فاعلية وأن كثرة الرحلات هى وسيلته الأساسية .

أما ابن جماعة ، فهو يسلك مسلكا يتفق كثيرا مع الاتجاه العملى ، فهو إذ يقف فى صف الذين ينادون بـ " الفهم " ، ويوضح لنا أن الفهم إنما يتم " بتصوير المسائل ثم يوضحها بالأمثلة وذكر الدلائل ويقتصر على تصوير المسألة وتمثيلها لمن لم يتأهل لفهم مأخذها ودليلها ويذكر الأدلة والمأخذ لمحتملها ويبين له معانى أسرار حكمها وعللها وما يتعلق بتلك المسألة من فرع وأصل ومن هم فيها فى حكم أو تخريج أو نقل بعبارات حسنة الأداء " [١] .

وهو يذهب أيضا إلى أن المعلم إذا شعر بالحاجة إلى استعمال اصطلاح يثير الحياء ، فلابد من ذكره " ولا يمتنع من ذكر لفظة يستحى من ذكرها عادة إذا احتيج إليها ولم يتم التوضيح غلا بذكرها [٢] .

٤- لغة التعليم :

ولغة التعليم المقصودة هنا هى اللغة العربية ، وغنى عن البيان أن اللغة عامة باعتبارها وعاء الثقافة كانت لها دلالة كبيرة على شكل هذه الثقافة ومضمونها ولونها واتجاهاتها ، وبالتالى فإننا عندما نفتش فى خصائص لغة ما ، وعديد من جوانبها المختلفة ، نستطيع أن نقف على صورة صادقة ، " للمجتمع " نفسه ، ومن هنا كانت أهمية البحث فى لغة التعليم المستعملة ، وهى العربية لنرى إلى أى حد كانت هذه اللغة تعبر عن نزعة " عملية " .

فقد شاع لدى البعض من يكتبون عن تراثنا أن مضمونه الفكرى فقير مختبئ وراء ألفاظ مصقولة تعطى بريقا خاطفا بحيث تخدع القارئ الذى يتوهم فيها شيئا بينما هى جوفاء ، لكن ذلك إذا جاز لنا قبوله بشىء من التحفظ عن الثقافة الإسلامية فى بدء نشأتها حيث غلبت صفة البداوة وبساطتها ، لكن لا يجوز قبوله بعد أن انتقل العرب إلى حياة المدن وما فيها من ثراء ثقافى وتعقيد وتعدد فى النظم الاجتماعية والسياسية مما يوقظ العقل ويعمق من مستواه فيلحظ دائما الأبعاد المختلفة للفكرة ويختار لها ما يعبر عنها من ألفاظ فتجئ اللغة بذات العمق وذات الثراء .

---

[١] تذكرة السامع ، ص ٥٢ .
[٢] المرجع السابق .

ولعـــل أبـــرز الأمثلة التى توضح لنا هذا الاتجاه ، " الجاحظ " ، فالفكرة على يديه غنية غزيرة المعنى ، ومن ثم فهى لا تحتاج إلى بريق لفظ يستر منها فقرا واللفظ عنده ميسور كل اليسر كأنه الشراب السائغ [١] ، إذ أشار فى رسالته المعنونة " الجد والهزل " إلى أن الألفاظ لابـــد لها من أن تشير إلى مدلولات فى عالم الواقع ، ومن ثم فإن اللفظ الذى يفتقد هذا ، إنما أشـــبه بالظرف الخالى الذى نتوهم أن فيه شيئا ، فإذا فضضناه وجدناه خاويا ، وتلك من غير شـــك دعوة هامة لو أخذناها بجدية ، لخلصنا ثقافتنا من كثير من المشكلات التى ربما يكون منشـــؤها الأصلى ألفاظا جوفاء ورثناها فظننا لطول تاريخها ولكثرة استعمالها أنها تدل على واقع بينما هى مجرد لافتة لا محل لها ، يقول الجاحظ [٢] :

" ولا يجوز أن يعلمه (وهو يشير هنا إلى معنى الآية القرآنية التى يشير فيها الله تعالى إلـــى تعلـــيمه لآدم الأسماء كلها) الاسم ويدع المعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه ، والاسم بلا معنى ، لغو كالظرف الخالى ، والأسماء فى معنى الأبدان ، والمعانى فى معنى الأرواح ، اللفظ للمعنى بدن ، والمعنى للفظ روح ، ولو أعطاه الأسماء بلا معان لكان كمن وهب شيئا جامدا ، لا حركة له وشيئا لا حس فيه وشيئا لا منفعة عنده ، ولا يكون اللفظ لا حركة له وشيئا لا حس فيه ، وشيئا لا منفعة عنده ، ولا يكون اللفظ اسما إلا وهو مضمن بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا اسم له ولا يكون اسم وليس له معنى " .

إن التطبـــيق التـــربوى لهذا الرأى من شأنه أن يقيم المعوج من كثير من أساليب التربية المستخدمة ، إذ أن الترجمة العملية لذلك هى أننا عندما نريد تعليم الأطفال اسما ، فلا بد وأن يقتـــرن بذلك أن يخبر الطفل المسمى حتى تجئ الألفاظ محملة بالمعانى والدلالات ، ولا يقف الأمـــر عـــند حـــد تعليم الأطفال القراءة والكتابة ، بل إنه ليمتد إلى فلسفة التربية كلها وذلك باشتراط أن يتوافر الأساس " الخبرى " لكل ما نعلم حتى يكون له معنى لدى من نعلم .

وإلى نفس الاتجاه ذهب " ابن جنى " إذ دافع عن اللغة العربية مفندا تلك التهمة التى تتهم بهـــا وفـــى أن عنايتها تتجه فى أغلب الأحوال إلى الألفاظ دون المعانى ، إلى الأسماء دون المسميات ، إلى النظر دون العمل يقول فى ذلك :

---

[١] زكى نجيب محمود : المعقول واللامعقول ، ص ١٤٩ .

[٢] الجاحظ : رسالة فى (الجهد والهزل) ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الخانجى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، جـ ١ ، ص ٢٦٢ .

" .. إن العـــرب كمـــا تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ أحكاما بالشعر تـــارة ، وبالخطـــب أخرى وبالأسجاع التى تلتزمها وتتكلف باستمرارها ، فإن المعنى أقوى عـــندها وأكـــرم عليها وأفخم قدرا فى نفوسها ، فأول ذلك عنايتها بألفاظها ، فإنها لما كانت عـــنوان معانـــيها وطـــريقا إلى إظهار أغراضها ومراميها ، أصلحوها ورتبوها وبالغوا فى تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لها فى السمع ، وأذهب بها فى الدلالة على القصد .. فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هى بالألفاظ ، بل هى عندنا خدمة منهم للمعانى ... " [١] .

مظهـــر آخـــر للاتجـــاه العملـــى للغة العربية ، هو أنهم لما جعلوا الألفاظ وثيقة الصلة بالمعانـــى ، حرصوا على أن تكون قوة اللفظ من قوة الفعل ، فقال سيبويه فى المصادر التى جاءت على الفعلان : أنها تأتى للاضطراب والحركة ، نحو الغليان والغثيان ، فقابلوا بتوالى حركات المثال حركات الأفعال . وكذلك نجد المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير نحو : الزعـــزعة ، والقلقلـــة ، والصلصـــلة ، والجرجرة ، فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر ، وكـــذلك جعلـــوا تكريـــر العين فى المثال دليلا على تكرير الفعل ، فقالوا : كسَّر ، وفتَّح ، وغلَّق [٢] ..

٥- مناهج التعليم :

يمكـــن أن نقول بلا مبالغة أن " المنهج المدرسى " هو الترجمة الحقيقية أو هو الصورة التنفـــيذية والإجراءات التى يؤدى اتباعها إلى تحقيق ما يدعو إليه المربى من آراء وأفكار ، ومـــن ثم فإن دراستنا لمناهج التعليم الإسلامى تكشف لنا عن المنزلة الحقيقية للعمل فى الفكر التربوى الإسلامى .

بيد أننا هنا ينبغى قبل أن نخطو أولى خطواتنا نحو هذا الهدف لابد – لا أن نقرر حقيقة جديـــدة ، ولكـــن لمجرد التذكير فقط – أن نضع فى الاعتبار الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والثقافـــية التى كان يتحرك فى حدودها فكرنا التربوى ، فقد ظلت الحياة الاقتصادية فى كثير مـــن أجزاء العالم الإسلامى خلال شطر كبير من العصور الوسطى رغم ازدهارها الملحوظ قائمـــة على طرق وأساليب وتنظيمات وقواعد أولية بحيث لم تظهر الحاجة للإعداد لها عن طريق تعليم نظامى ، ولو أن تعليما نظاميا قام وقتئذ للإعداد للحياة الاقتصادية لكان ذلك ترفا

---

[١] المعقول واللامعقول ، ص ٢٣٦ .
[٢] المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

لا مبـرر لـه . ومـن هنا بقيت الثنائية بين تعليم الحياة الاقتصادية غير النظامى ، وتعليم المدرسة النظامى : الأول عملى يتم فى سياق الحياة ، والثانى نظرى يأتى إضافة على الحياة أو استكمالا لها دون أن يكون له صلة بالإنتاج [١] .

وإذا كـنا قـد قلنا أن التراث الإسلامى قد عرف من العمل أنواعا متعددة ، منها العمل الإنتاجـى وأنه قد نال حظه من التقدير والاحترام والتنويه ، إلا أنه من الضرورى ألا يغيب عـن بالـنا ما يمكن تسميته " بالروح العامة " التى كانت تسرى فى الحياة فى تلك المنطقة ، وهـى الروح الدينية بحيث ينظر فى تقييم الأمور إلى مدى ما تسهم به فى إعداد الفرد للعالم الآخر ، صحيح أن من مبادئ الإسلام الأساسية أن الحياة الدنيا (مزرعة) بمقدار ما نزرع فـيها ، نجـده فى الآخرة ، إلا أن هناك من كانوا ينسون ذلك ، ومن لا ينسونه ، ولا يبرح ذهنهم أن كل ما يتصل بالحياة الدنيا إن هو إلا عرض ، وحالة مؤقتة وأننا كراكبى قطار كل منا ينزل فى إحدى المحطات ، ثم هناك المحطة النهائية التى تنتهى عندها المسيرة لتبدأ حياة أخرى هى الأصل ، وهى الدائمة .

لا نقـول ذلـك من باب التقليل من شأن هذا الاتجاه ، وإنما حتى يتم لنا " الفهم " الدقيق والوعى الحقيقى باتجاهات الفكر التربوى الإسلامى نحو العمل ، إذ أن معنى ذلك هو شيوع أسـاليب وصور من الأعمال التى قد لا ندخلها الآن فى مفهوم العمل ، ولكنها فى العصور السـابقة كانـت تمثل أنصع صورة وأعلاها قيمة ، فالقيام بالشعائر الدينية من صلاة وقراءة القـرآن وإيـتاء الزكاة والحج وغيره هو " عمل " حقيقى من وجهة النظر القائمة ، بل يمكن القول بأنه هو " العمل " المنتج حيث أن الإنتاج يقاس بمقدار الإعداد للحياة فى العالم الآخر .

ولعلنا بعد هذا عندما نفتش فى الآراء المختلفة التى ساقها المفكرون – الإسلاميون لبيان مـا ينبغى للتلميذ أن يتعلمه ثم نجد أن المواد الدينية هى التى تمثل مكان الصدارة ، لا نبادر إلـى الحكم بأن هذا دليل واضح لغياب النواحى العملية فى تقديرهم ، خاصة وإذا أضفنا إلى ذلـك أن ممارسـة الشـعائر الدينـية لم تكن هدفا فى حد ذاتها وإنما هى وسيلة ينبغى منها " السلوك " الذى من شأنه أن يسعد الفرد ويسعد الجماعة حسب التصورات الإسلامية .

---

[١] محمد أحمد الغنام : تطور العلاقة بين الاقتصاد والتعليم ، ص ١٥ .

ومـــن ثـم تأتـــى دراســـة القرآن فى المقدمة لأنه مرجع المسلمين فى معرفة العبادات والمعـــاملات ، ولا ســـبيل إلى معرفة الحدود الشرعية الصحيحة للديانة إلا بمعرفة الأصل الأول من أصول الدين وهو القرآن [١] ثم سائر العلوم الدينية الأخرى .

ولـــنا بعد ذلك أن نتساءل عن المواد الدراسية الأخرى التى كانت تعتبر بحق معينة فى الحياة العملية ، من هذه المواد " الشعر " الذى ربما إذا قيمناه بمعاييرنا الحالية ، لنأينا به عما يعين على الحياة العملية ، لكن المربين الإسلاميين اهتموا بأن يتعلمه التلميذ لأنه " يقيمَ لسانه ويفصحه ويأنس إليه فى بعض الأوقات ويستشهد به فيما يريد بيانه " .

أمـــا " الحســـاب " فقـــد كـــان يعد ضروريا فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيـــرها ، وهـــذا ما يؤكده ابن رجب البغدادى " كذلك الحساب يحتاج منه إلى ما يعرف به قســـمة الفـــرائض والوصايا والأموال التى تقسم بين المستحقين لها " .[٢] وإذا كان هذا مما يـــدخل فـــى المصـــلحة الدينـــية ، إلا أن الجاحظ يضيف على هذا قيمته النفعية الاجتماعية وضـــرورته فى ضبط الحضارة والعمران ، وفى ذلك يقول : " فالدليل على فضيلته ، وعظم قدر الانتفاع به قول الله عز وجل " (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة لولا معرفة العـــباد بمعنى الحساب فى الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب فى الآخرة . وفى عدم اللفظ وفساد الحظ والجهل بالعقد ، فساد جل النعم وفقدان جمهور المنافع واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواما ، ومصلحة ونظاما "[٣] .

كـــذلك فـــإن من يجد فى مناهج التعليم التى ينصح بها المفكرون الإسلاميون مادة مثل (أيـــام العرب) سيقع فى ظنه بأنها مادة نظرية بحتة لا صله لها بالحياة الاجتماعية ، وهذا ظـــن خاطـــئ ، فهـــذا هو القابسى مثلا ينظر لدراسة هذه المادة من حيث أنها محركة لهمم الأطفـــال نحو أعمال البطولة ، وباعثة لهم على أفعال الخير ، ونحن نعلم أن المحاكاة فطرة نفســـية تدفـــع الأطفال إلى تقليد الأعمال من غير قصد أو شعور . وذكر الاثنابى " أن يتعلم

---

[١] أحمد فؤاد الأهوانى ، التربية فى الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٩ .
[٢] المرجع السابق ، ص ١٧٥ .
[٣] الجاحظ : (البيان والتبين) ، تحقيق عبد السلام هارون ، الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، جـ ١ ، ص ٨٠ .

الأطفـــال القـــرآن وأحاديـــث الأخـــبار وحكايـــات الأبرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين " [١] .

وعلى الرغم من خلو معاهد التعليم الإسلامية من العناية بالجانب الجسمى من الإنسان ، إلا أننا إذا رجعنا إلى السنة النبوية سنجد فيها ما يشجع على ذلك ، فقد فسر الرسول ﷺ قوله تعالى : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " بأن المراد بالقوة ، هو " الرمى " فقال : " ألا أن القـــوة الرمى ، ألا أن القوة الرمى ، ألا أن القوة الرمى " [٢] . وقد قال العلماء فى شرح هذا الحـــديث : فـــيه دلـــيل علـــى مشروعية الاشتغال بتعليم آلات الجهاد والتمرن فيها والعناية بإعـــدادها ليتمرن بذلك الإنسان على الجهاد ويتدرب فيه ويروض أعضاءه . كذلك روى عن الرسول قوله : " حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمى " . فنذكر هنا نوعا آخـــر هو السباحة حيث أنها ترويض لأعضاء الجسم كله وهى بإطلاقها تشمل حركة الجسم فى الماء والتجديف وسائر ما عرف من أنواعها هذه الأيام .

وإذا كانـــت العلـــوم الدينية قد غلبت على مناهج التعليم فى العصور الإسلامية الأولى ، فـــإن العلوم الرياضية والطبيعية والاجتماعية قد بلغت ذروتها فى القرن الرابع ، ففى الطب والجراحة وعلم الأدوية والفلك والفسيولوجيا وصل العرب إلى كشوف هامة وإن كانت تعتبر الآن أولـــية ، ففسروا انكسار الضوء والجاذبية ، وقدروا وزن ارتفاع الهواء والوزن النوعى للأجســـام وعملوا جداول مختلفة للأبحاث الفلكية وأوضحوا مقدار الخطأ فى المرئيات الناتج عن انكسار الضوء ، واخترعوا أشياء أخرى وعلموا أوربا استعمال البوصلة والبارود [٣] .

ومـــن أخطر النصوص التى تصرخ بالاتجاه العملى حقا ، ما ذكره ابن الهيثم عن نفسه فيما يأتى : " ازدريت عوام الناس ولم ألتفت إليهم واشتهيت إيثار الحق وطلب العلم ، واستقر عندى أنه ليس ينال من الدنيا شيئا أجود ولا أقرب من الله من هذين الأمرين ، فخضت لذلك فـــى ضـــروب الآراء والاعتقادات وأنواع العلوم والديانات فلم أحظ من شئ منها بطائل ولا عـــرفت منها للحق منهجا ولا إلى الرأى اليقينى مسلكا ... فرأيت أننى لا أصل إلا عن آراء

---

[١] الأهوانى : التربية فى الإسلام ، ص ١٧٩ .
[٢] محمود شلتوت : من توجيهات الإسلام ، دار الشروق ، القاهرة ، د.ت ، ص ٥٧ .
[٣] أسماء فهمى : التربية الإسلامية ، ص ٦٣ .

يكـــون عنصـــرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية : فلم أجد أرسطاليس من علوم المنطق والطبيعيات والهيئات " [١] .

٦- المنطق العملى :

للنظـــريات المنطقية العديد من الخصائص والسمات ، فإذا ما أردنا أن نضع أيدينا على أهـــم هـــذه الخصائص والسمات من الناحية التى تهمنا نحن رجال التربية ، فسوف نجد أنها تحلـــيل لمفاهـــيم الـــثقافة وطـــرائقها تحليلا يبرز صورها ، ومن ثم كان الارتباط وثيقا بين النظـــرية المنطقية وبين الأساس الذى تقوم عليه الثقافة فى العصر المعين . وإذا كانت مهمة التربية الأساسية هى نقل الثقافة من جيل لآخر وتجديدها وتطويرها ، كان لابد أن ترتبط بما يكون بين النظرية المنطقية فى عصر من اختلاف عنها فى عصر آخر [٢] .

فالمـــتأمل فى الثقافة اليونانية القديمة ، يجد أنها رياضية فى صورتها ومبناها ، وإن لم تكن كلها رياضية فى مادتها وفحواها ، بمعنى أنها كانت تسير من مبدأ مفروض على النتائج التـــى تـــتولد من ذلك المبدأ [٣] ، وكل ما هو مطلوب هو أن تتناسق المقدمات مع ما تولدت عـــنه مـــن نتائج ، فلا تتناقض معها ، أما أن تتفق هذه النتائج مع الواقع الخبرى أم لا ، فلم يكـــن ذلـــك يغيـــر من الأمر شيئا ، لذلك فإن مفكرا مثل أرسطو حين نهض ليرسم الطريق المســـليم للفكـــر الصحيح ، نجد أنه ترسم خطوات التفكير الرياضى الاستنباطى فجاء منطقه عاكســـا لهذا النهج من التفكير والذى فيه تستمد النتائج يقينها من يقين مقدماتها لا من الواقع الخبرى الذى يحياه الناس .

وقـــد كانـــت الفكرة السائدة لدى الباحثين ، من شرقيين وأوربيين أن المنطق الأرسطى قـــوبل فـــى العـــالم الإسلامى – حين ترجم وتوالت ترجماته – أحسن مقابلة ، فسرعان ما اعتبرته المدارس الإسلامية – على اختلاف نزعاتها وتباين أغراضها – قانون العقل الذى لا

---

[١] ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، جـ ٢ ، ص ٩٢ – ٩٣ .
[٢] سعيد إسماعيل على : نقد ديوى للنظرية المنطقية الأرسطية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٤ .
[٣] زكى نجيب محمد : وفلسفة علمية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢٤ . .

يـــرد ، والمنهج العلمى الثابت .. تعاريفه وحدوده ثابتة ، وأحكامه وقضاياه مسلمة ، وأقيسته منتجة لليقين وموصلة إلى العلم من حيث هو [١] .

ونحـــن وإن كـــنا لا نســـتطيع أن ننكر تأثر المسلمين بهذا المنطق وشيوعه فى كتابات فلاســـفة الإسلام إلا إننا لو فتشنا فى ممثلى الفكر الإسلامى الحقيقى من متكلمين وأصوليين وفقهاء ، فسوف نجد أنهم قد وضعوا أيديهم – بجانب المنطق الصورى الأول – على منطق آخر عملى تجريبى .

ففـــى كتابات عالم مثل جابر بن حيان على سبيل المثال ، نجده يؤكد على أن " الدربة " هـــى التـــى تجعل العالم عالما حقيقيا ، يقول : " فمن كان دربا كان عالما حقا ، ومن لم يكن دربا ، لم يكن عالما . وحسبك بالدربة فى جميع الصنائع " . وقد لاحظ الدكتور زكى نجيب محمـــود أن الدربـــة تعنى التجربة [٢] ، ويقول جابر أيضا " أن الصانع يحذق ، غير الدرب يعطل " .

كذلك يلفت الدكتور زكى النظر إلى نقطتين تؤكدان علمية منهج جابر واتجاهه العملى ، أولا همـــا ، إشـــارته إلـــى ميل النفس البشرية إلى توقع تكرار الحادثة التى حدثت ، فكأنما الاســـتدلال الاستقرائى مبنى على استعداد فطرى فى طبيعة الإنسان ، ونحن نجد هذا المبدأ نفســـه لـــدى جون ستيوارت مل ، أما ثانيهما فهو كون درجة احتمال التوقع يزداد كلما زاد تكرار الحوادث ، وهى نظرية حديثة لها تفصيلات كثيرة [٣] .

ولـــم يكـــن جابـــر هو الوحيد بطبيعة الحال فى تبنى المنطق العلمى التجريبى ، فهناك آخرون كثيرون لا يسمح المجال بتتبعهم ، ونكتفى هنا بالإشارة إلى (ابن الهيثم) فهو يحدثنا فـــى بحـــث عـــن كيفية الإبصار حديثا هاما يبرز " تجريبيته " ، فيقول : " نبتدئ فى البحث باســـتقراء الموجـــودات وتصفح أحوال المبصرات ، وتمييز الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخـــص البصـــر فـــى حـــال الأبـــار ، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحســـاس ، ثـــم نترقـــى فى البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاء المقدمات ،

---

[١] على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، تصدير المؤلف للطبعة الأولى .

[٢] زكى نجيب محمود : جابر بن حيان ، مكتبة مصر ، القاهرة ، سلسلة أعلام العرب ، ص ٥٧ .

[٣] المرجع السابق ، ص ٧ .

والتحفظ فى النتائج . ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهـوى ، ونتحـرى فى سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء ، فلعلنا ننتهى بهذا الطريق إلى الحق الذى به يثلج الصدر . . "[1] .

وبعد .... فهذه آيات العمل وصوره فى الفكر التربوى فى تراثنا نود قبل أن نتركها أن نـؤكد مـرة أخرى أننا لا نعنى بكل ما قلناه أن السمة العملية هى وحدها التى سادت ، وأن العمل هو وحده الذى كان المحور الأساسى ، وإنما قصدنا أن نؤكد أنه كان قائما وبوضوح ، وأنـه كان أساسيا ، لكن مع الاعتراف بأن مفاهيم أخرى مناقضة واتجاهات أخرى مغايرة ، كانت قائمة أيضا ، ولا غرو فى ذلك فالحضارات العظمى غالبا ما تحوى فى باطنها الألوان المتضـادة والاتجاهـات المتعارضة ، ولعل هذا التضاد وذاك التعارض ينشئ حيوية ويوجد ثـراء ، ويكـون مصير الحضارة متوقفا على النتيجة التى تنتهى إليها عمليات الصراع بين المتضـادات والمتناقضات ، وغاية ما يمكن أن نشير إليه أن هذه الأمة ما كان يمكن لها أن تقـيم حضارة عظيمة استمرت عديدا من القرون إلا لأن أصحابها قد انتهجوا فى حياتهم فى كثير من الأحيان نهجا عمليا ، ثم أنهم إذ رأوا هذه تتفكك وتتهاوى فلأنهم بعد ذلك ركنوا إلى الدعـة والـتواكل والتكاسل ، ووقعوا أسرى الخرافات واللامعقولية وساعد على ذلك وقوع الأمة فى شباك سياسة نسجت من الاستغلال والقهر والاستبداد .

---

[1] النشار ، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤ .